الباب الرابع

الاحوال الثقافية والاجتماعية

- التعليم
- المجتمع النابلسي
- الاقليات الدينية (النصارى ، السامره ، اليهود)
- النزاعات المحلية
- بعض العادات والمناسبات

التعليـــم :

أهل القرن التاسع عشر ، وحالة نابلس بل حالة الشام عموما في تأخر ثقافي كبير ، كانت المدارس قليلة ، وغاية ما يرى فيها بحصر الكتاتيب ، واقتصر التعليم على العلوم الدينية واللسانية ، وكانت الكتب عزيزة الوجود وغالية الثمن فقد بيع احد الكتب في نابلس ب ٢٨٠ زلطه (١) . " وكانت اكثر الكتب من المخطوطات الغالية ، والطباعة العربية قليلة الانتشار ، ومطبوعات اوروبا العربية لا يعرفها الا القليل من افراد الشرق ، ومطبوعات العاصمة استانبول في الغالب تركيـــة ، ومطابع لبنان اكثرها دينية لا مدرسية" (٢) .

كانت اكثر المعاهد التعليمية القائمة في مختلف انحاء الدولة العثمانيـــة ، حتى اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر مدارس دينية . ووجـــدت مدارس تعليمية خاصة بالصغار لتعليم مبادىء الدين والقرآن ، ومدارس خاصـــة بالكبار تهدف الى تعليم العلوم الدينية الشرعية المختلفة (٣) . وعرف الصنـــف الاول من هذه المدارس في معظم البلدان الشامية باسم "الكتاب" بينما عرف الصنف الثاني باسم "" المدرسة" (٤) .

الحقت المعاهد التعليمية الصغيرة والكبيرة بالجوامع العامة ، او استقلت عنها في مباني شيدت لهذا الغرض مع جوامع خاصة بها (٥) . واتخذت الجوامع بنابلس اماكن للتدريس اوائل القرن التاسع عشر ، ولم تظهر المدارس بالمفهوم الحديث الا في النصف الثاني منه . وقد بلغ عدد الجوامع في لواء نابلس آخر القرن التاسع عشر زهاء ١٦٢ جامعا (٦) . اشتهر منها في نابلس الجامع الكبير الصلاحي (٧) ،

---

(١) سجل : ٦ ص ٣٧١ .
(٢) شيخو (لويس) : الاداب العربية في القرن التاسع عشر ، المشـــرق ، ١٠ / ١٩٠٧ ، ص ٢٤١ — ٢٤٥ .
(٣) الحصري : حولية الثقافة العربية ، السنة الاولى ، ص ٣
(٤) نفس المصدر : ص ٣
(٥) نفس المصدر : ص ٣
(٦) سالنامه بيروت : ص ٢١٨ — ٢٣٦ .
(٧) سجل : ١٢ ص ٤٦ ، سجل : ٢١ ص ٢٧٤ .

وجامع العين المشهور بجامع البيك (١) ، وجامع الحنابله (٢) ، وجامع النصر (٣) ، وجامع الخضر (٤) ، وجامع الساطون (٥) .

قام النائب الشرعي بتعيين المدرس في الجامع ، فقد عين النائب الشرعي " فخر المدرسين محمد راغب افندي التميمي في وظيفة اداء الدرس الشريف ونفع العوام بالوعظ بالجامع الكبير الصلاحي" (٦) . كما عين الشيخ سعيد بن محمد صلاح الباقاني مدرسا بجامع النصر (٧) .

اشترط فيمن عمل بوظيفة التدريس بالجامع ان يكون حاصلا على اجازة علمية تخوله القيام بهذه المهمّة ، واتضح ذلك من مرسوم الشيخ سعيد الباقاني، اذ أفاد المرسوم ان تعيين الشيخ تمّ " بعد ان تبين اهليته بموجب الاجازة المعطاة له من العلما الافاضل بنابلس الموجودة بيده " (٨) . ومع ان السجلات لم تسعفنا باجازة من هذه الاجازات ، لكن المخطوطات زودتنا بالاجازات الممنوحة لعدد من الشيوخ في دمشق ، ومن ذلك اجازة للشيخ محمد عبدالرحمن الكزبرى في دمشق سنة ١٢٠٨/١٧٩٣ (٩) ، تبين منها انواع الكتب التي درسها الشيخ مثل : كتاب الاحياء للغزّالي ، وتفسير البيضاوى ، وشرح الفية بن مالك

---

(١) سجل : ٣٤ ص ٧٠ ، سجل : ٣٦ ص ٣٢٦ .
(٢) سجل : ٣٤ ص ٣٢ .
(٣) سجل : ١٣ ، ق ٢ ، ص ١٢٩ ، سجل : ٣٧ ، ص ١٧٤ .
(٤) سجل : ٣٧ ، ص ٤٤ .
(٥) سجل : ٣٥ ، ص ٦٣ ، سجل : ٣٧ ص ٤٢ .
(٦) سجل : ٢١ ، ص ٢٧٤ .
(٧) سجل ٣٧ ، ص ١٧٤ .
(٨) سجل : ٣٧ ، ص ١٧٤ .
(٩) هو محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن زين الدين بن عبدالكريم الصفدى الشهير بالكزبرى ١١٤٠/١٧٢٨ - ١٢٢١/١٨٠٦ ، ولد بدمشق ودرس الحديث في جامع بني امية . كحالة (عمر رضا) : معجم المؤلفين ج ١٠ ص ١٥٢ .

وصحيح مسلم وكتب السنة السته . وشرحت الاجازة ان الشيخ الكزبري كان يسمع حصة من هذا الكتاب وحصة من ذاك " ولما اراد الشيخ الكزبري العودة الى بلده طلب الاجازة ببقية الكتب التي حضرها وسمعها وجميع فنون ما ألفت فيه وجميع ما يجوز له روايته من الصحاح والسنن وبقية موءلفات علم الحديث ، وموءلفات علم التفسير ومن الفقة والنحو والصرف والبيان والمنطق الاسلامي وجميع كتب التصوف والرقايق والاذكار والاوراد وجميع ما ذكر قراءة وسمعا " (١) . وعددت الاجازة الشيوخ الذين اخذ عنهم الكزبري ، ووضحت ان كل شيخ اجازه في العلم الذى تلقاه عنه . وبنفس الاسلوب تحدثت اجازة الشيخ عبدالغني الميداني سنة ١٢٣٥/١٨١٩ (٢) الذى تلقى علومه على الشيخ الكزبري في جامع بني امية ، وقال " وقد اجازني وكتب بخط يده المباركة اجازة لطيفة " (٣) . وكانت الاجازة اما لفظا او مكتوبة وربما بلغت حجم كراستين او ورقتين (٤) ..

لم تنفق الحكومة على المدرسين ، بل اعتمدوا في معاشهم على تبرعات المحسنين ، وما أوقف على القائمين بالتعليم من اوقاف (٥) ، واقطع ائمة وخطباء المساجد في بعض الاحيان ، ارضا من ارض وعقارات الجوامع والمدارس الموقوفة بنسبة رواتبهم . ظهر ذلك من مرسوم احمد باشا الجزار الى الشيخ يوسف الجرار متسلم نابلس سنة ١١٩٩/١٧٦٤ اذ قال : " نبدى اليك أنّ في يد قدوة المشايخ الصالحين الشيخ محمد افندى الامام من متولي وقف جنين سندات باربع فدادين يشدّها في ارض الوقف في جنين وانها مطلقة من سائر التكاليف ومن قبله آبائه واجداده كانوا يأكلون هذه الاربعة فدادين " (٦) . وظهر فيما بعد ان الدولة حددت للائمة والخطباء والمدرسين رواتب محددة من غلة اوقاف الجوامع (٧) .

---

(١) الكزبري (محمد عبدالرحمن) : اجازة تعليم ، مخطوط ، ص ٤ — ٦ .

(٢) هو عبدالغني بن طالب بن حماده بن ابراهيم الدمشقي الحنفي الشهير بالميداني ١٢٢٢/١٨٠٧ — ١٢٩٨/١٨٨٠ ، الحصني (محمد اديب آل تقي الدين) كتاب منتخبات التواريخ لدمشق ، ج ٢ ، ص ٦٧٠ ، الشطي ص ١٥٢—١٥٣

(٣) الميداني (عبدالغني) اجازة تعليم ، مخطوط ص ٣ .

(٤) نفس المخطوط ، ص ٣ .

(٥) عوض : ص ٢٥٢ .

(٦) النمر : ج ٢ ، ص ٢٢٨

(٧) سجل : ١٢ ، ص ٤٦ سجل : ٢١ ، ص ٢٧٤ ، سجل : ٣٤ ص ٣٢ ، ٧٠

اختلفت اجور المدرسين من جامع لاخر وتوقف ذلك من ناحية على قدر الواجبات التي كان يقوم بها المدرس او الخطيب ، وعلى واردات وامكانيات وقف الجامع من ناحية اخرى . فقد تقاضى خطيب الجامع الكبير الصلاحي اقجه واحده يوميا (١) . واعطي الشيخ محمد افندى امام جامع الحنابله ٤٨٠ قرشا سنويا مقابل امامته للصلاة ، ثم رفعت هذه القيمة الى ٧٠٠ قرش لقيامه بصلاة التراويح (٢) ولان غلته تسمح بذلك (٣) ، لا سيما وان عائدات وقفه اكثر من بقية الجوامع الاخرى (٤) . واعطي لبعض المدرسين في جامع العين ٦٠٠ قرشا سنويا (٥) ، واعطي لاخرين ٢٥٠ قرشا (٦) . ووجد الى جانب ذلك مدرسون قاموا بالتدريس مجانا ، فالشيخ سعيد الباقاني عيّن مدرسا بجامع النصر سنة ١٣١٩/ ١٩٠١ "لوجه الله تعالى وابتغاء لمرضاته" (٧) . كما عمل الشيخ حسين افندى بن الشيخ حسن زيد القادرى مدرسا بجامع العين "حسبة لوجه الله تعالى وابتغاء لمرضاته" (٨) . وربما رأى الحاكم الشرعي بنابلس اعطاء بعض هؤلاء المدرسين راتبا مساعدة له او تقديرا لمكانته ، فقد اعطي الشيخ محمد تفاحه المدرس بالجامع الكبير الصلاحي مائة قرش في السنة "حيث انه كثير العيال ومحتاج للانفاق عليهم وحيث ان الشيخ من السلالة الطاهرة" (٩) .

بينت الوثائق ان وظيفة التدريس بالمساجد كانت وراثية . فقد عين الشيخ محمد راغب التميمي مدرسا بالجامع الكبير الصلاحي خلفا عن المرحوم محمود التميمي ولابن عم أبيه صالح التميمي "لموتهما وانحلال ذلك عنهما" (١٠) .

---

(١) سجل : ١٢ ص ٤٦ .
(٢) سجل : ٣٤ ، ص ٣٢ .
(٣) سجل : ٣٤ ، ص ٣٢ .
(٤) الخارجية العثمانية ، سياسي Liban/25 6/1/77
(٥) سجل : ٣٤ ص ٧٠
(٦) سجل : ٢١ ص ٢٧٤ .
(٧) سجل : ٣٧ ص ١٧٤ .
(٨) نفس السجل : ص ٤٢ .
(٩) سجل : ٣٥ ، ص ٣٥٤ .
(١٠) سجل : ٢١ ، ص ٢٧٤ .

واذا لم يكن للمدرس المتوفى ولد قادر على اداء مهمة التدريس ، اعطيت لشيخ آخر من العائلة يستطيع القيام بهذه المهمة ، فبعد وفاة الشيخ نعمان الجوهري ، انتقلت مهمة التدريس الى ابن عمه الشيخ عبدالرحمن عارف الجوهري ، وذلك لعدم قدرة ولد الشيخ نعمان على اداء الوظيفة " لعدم اشتغاله بالعلم الشريف " (١) • وقد تكرر ذكر افراد من عائلات التميمي وتفاحه ، والجوهري ، والباقاني ، والقادري ، عملوا مدرسين في جوامع نابلس في القرن الماضي •

قام هؤلاء المدرسون بوعظ الناس وتدريسهم الحديث والفقه على المذهب الحنفي ، وسمح للبعض تدريس الفقه على المذاهب الاخرى كالشافعي والحنبلي (٢) • ونال المدرسون مكانة ونظارة محترمة في الدولة العثمانية ، اذ كانت كافة المراسلات من الولاة الى متسلمي نابلس تذكر الطلبة والخطباء والعلماء والمدرسين (٣) ، كما اعفت الدولة المدرسين من التجنيد العسكري (٤) ، وخاطبت المراسيم المدرس بلفظ " فخر المدرسين " (٥) •

واذا كان التعليم في مدينة نابلس لم يزد عن العلوم الشرعية من فقه وحديث وتلاوة القرآن الكريم وحفظه ، فقد كانت القراءة والكتابة هي الحد الاقصى للتعليم في القرى (٦) • وقام بمهمة التعليم في القرية خطيب القرية وامام مسجدها • واشترط في الخطيب ان يكون اهلا لمنصبه وان يكون قد تجاوز سن العشرين ومن سكان القرية (٦) ، وان يجتاز امتحانا في مجلس اللواء باشراف مأمور الاوقاف والنائب الشرعي (٧) •

---

(١) سجل : ٣٥ ، ص ٣٢٤ •
(٢) سجل : ٢١ ، ص ٢٧٤ ، سجل : ٣٥ ، ص ٣٥٤ •
(٣) سجل : ٣٥ ، ص ٣٢٤ •
(٤) سجل : ١٣ ، ق ٢ ، ص ١٢٩ •
(٥) نفس السجل : ص ١٢٩ •
(٦) عوض : ص ٢٥٢ •
(٧) سجل : ١١ ، ص ١٨ •

لم يكن التعليم في نظر الدولة العثمانية من واجباتها الاساسية ، لـذا تركت امور التعليم للناس يقومون به بأنفسهم ، ومع ذلك، فقد كانت الدولة تحث الناس على الاقبال على التعليم ، وتحصيل المعارف لا سيما العلوم الدينية ، ظهر ذلك من مرسوم اصدره شيخ الاسلام الى القضاه ونواب الشرع في مختلف مناطق الدولة سنة ١٢٤١/١٨٢٥ جاء فيه " ...وجميع اهـل الاسلام خاص وعام يتخذون معلما لولده ويدفعه ويسعوا في تعليمه الامور الدينية وقبل اوان حلمه وبلوغه لا يأخذوه من معلمه " (١) .

حدث تقدم في مجال التعليم اثناء الحكم المصرى لسورية ، اذ وضع ابراهيم باشا سنة ١٢٥٠/١٨٣٤ اسس التعليم المدرسي ، وانشأ المدارس الابتدائية في جميع انحاء سورية ، وطبق برنامجا للتعليم الابتدائي باللغة العربية (٢) ، واسس ابراهيم باشا المدارس على النسق المصرى ، واتصفت هذه المدارس بانضباط شديد ، فلبس الطلاب البدلة العسكرية ، واطعموا مجانا (٣) .

أدت اعمال ابراهيم باشا في مجال التعليم الى حدوث تطور فكـرى وثقافـي في ولاية سورية ، واستمر هذا التطور اثر صدور قوانين التنظيمات العثمانية ، فقد اصدرت الدولة سنة ١٢٦١/١٨٤٥ قانونا نادى بمبدأ التعليم الاجبارى ، ووضعت المدارس الملحقة بالمساجد تحت مراقبة الدولة (٤) . وسنت الدولة فـي سنة ١٢٨٦/١٨٦٩ نظام المعارف العمومية ، تحدث عن انواع المدارس وانـواع الامتحانات وهي : المدرسة الرشدية ومدة الدراسة فيها اربع سنوات ، منهـا سنتان في مركز المتصرفية والباقـي في مـركز الولاية (٥) ، والمدرسة الاعدادية

---

(١) سجل : ٨ ، ص ٣٦٣ .
(٢) عوض : ص ٢٥٢ .
(٣) شريف (محمد بديع) : دراسات في النهضة العربية الحديثة ، ص ٤١ ، لوتسكي : ص ١٣٤ .
(٤) لوتسكـي : ص ١٥١ .
(٥) الدبـاغ : ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٥٢ .

والمدرسة السلطانية . وأما الامتحانات فهي : الامتحان الصفي عند انتقال طالب من صف الى آخر ، والامتحان المكتبي عند انتقال الطالب من مدرسة الى اخرى وامتحان الروؤس اي امتحان الملازمه ، وما كان الناجحين في هذا الامتحان العمل في اقلام الدولة المختلفة (١) .

بقي هذا النظام في ولاية سورية دون تنفيذ الى ان وليها مدحت باشا سنة ١٢٩٦/١٨٧٨ ، فقام بتنفيذ قانون المعارف العمومية ، واسس عددا من المدارس الابتدائية في جميع مدن الولاية وفي القرى الكبيرة ، ثم اردفها بمدارس (مكاتب) رشدية في مراكز السناجق والاقضية (٢) . واصبحت تشكيلات المدارس في العقد الاخير من القرن التاسع عشر على النحو التالي : ابتدائية ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، ورشدية ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، واعدادية على مرحلتين : الاولى اعداديات الالوية ، ومدة الدراسة فيها خمس سنوات، الثلاث الاولى منها رشدية والثانية اعداديات الولايات ومدة الدراسة فيها سبع سنوات ، الثلاث الاولى منها رشدية (٣) . وأشرف على ادارة التعليم في مدينة نابلس مجلس المعارف برئاسة متصرف اللواء ، وأشرف على التعليم في القضاء شعبة معارف برئاسة مدير القضاء (القائمقام) (٤) .

تأسست اول مدرسة رشدية في نابلس سنة ١٢٦٦/١٨٥٠ (٥) وازداد عدد المدارس في مدينة نابلس ، فوجد بها سنة ١٣٠٠/١٨٨٢ مدرستان للذكور بهما ١٨ معلما و ٥٢٦ تلميذا ، ومدرسة للبنات بها معلمتان و ١٠ تلميذات . ووجد في جنين مدرسة واحدة بمعلمين و ٨٠ تلميذا (٦) . واعلى مكاريوس

---

(١) رستم : لبنان ، ص ٢٦٤ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٦٤ .
(٣) المصري : حولية ، السنة الاولى ، ص ٧ .
(٤) سالنامة بيروت : ص ٢١٨ — ٢٣٦ .
(٥) نفس المصدر : ص ٢١٨-٢٣٦ .
(٦) مكاريوس : المعارف ، المقتطف ، م ٧ ، ص ٥٣٣ .

ارقاما احصائية لعدد المدارس في لواء نابلس للسنة نفسها على النحو التالي (١)

— ٢٠ مدرسة للذكــــور .
— ٣ مدارس للانـــــاث .
— ٣٦ معلــــم .
— ٤ معلمـــات .
— ١٠٨١ تلميــذ .
— ١٤٢ تلميــذه .

وأشـــار احد السجلات الى وجود المدرسة الرشدية بنابلس سنـــــة ١٣٠٠/١٨٨٢ ، حينما تحدثت وثيقة عن " رشدي افندي المعلم الاول بمدرســـة الرشدية بنابلس قد اعتراه المرض (٢) فحصل على تقرير طبي وتغيب عن المدرســـة ". وأرسلت شعبة المعارف بنابلس الى طبيب البلدية تطلب اعلامها عن درجة مـــرض المعلم لعلّما يلزم لدوام دروس التلاميذ مدة مرضه نظرا لاهمية ذلك " (٣) . فأجاب طبيب البلدية " المبتم الافادة عن الخوجه (٤) المرقوم فعلّته المبتلــى بها عارض الجنان اعني اختلال عقلي ولحد تاريخه هو باقي مبتلا بالعلة المرقومــة بناء عليه صار اعطاء هذا الرابورط " (٥) .

بينّت سالنامه ولاية بيروت سنة ١٣١٨/١٩٠٠ ان عدد المدارس فـــي لواء نابلس بلغ ٦٢ مدرسة ، ومدرستان دينيتان ، منها ٢٦ مدرسة في قضاء بـــني صعب ، واثنتان في قضاء جنين (٦). كما وضحت السالنامة العلوم التي تدرس فـــي المدرسة الابتدائية والمدرسة الاعدادية . ففي الابتدائي درس التلاميذ : اللغـــة التركية قراءة وكتابـــة ، والقرآن الكريم تلاوة وتجويـــــدا ، والعقائد ، والخـــط

---

(١) مكاريوس : المعارف ، المقتطف ، م ٧ ص ٥٣٧ .
(٢) سجل : ٢٤ ، ص ٣٨١ .
(٣) سجل : ٢٤ ، ص ٣٨١ .
(٤) الخوجة : لفظ فارسي بمعنى المعلم او الكاتب او التاجر او السيـــد الباشـــا ص ٢٧٦ .
(٥) نفس السجل : ص ٣٨١ .
(٦) سالنامة بيروت : ص ٢١٨ — ٢٣٦ .

والحساب . ودرس التلاميذ في المدرسة الاعدادية اللغة والتركية والعربية والفارسية والفرنسية ، والتاريخ والجغرافيا ، ومسك الدفاتر ، والحساب ، والهندسة والجبر ، وعلم المواليد ، والعلوم الدينية ، والخط (١) . وتجدر الاشارة الى ان اللغة التركية ظلت لغة التدريس الرسمية في المدارس الابتدائية والاعدادية حتى سنة ١٣٢١/١٩١٠ حينما جعلت العربية الزامية في البلاد العربية (٢) .

كانت ادوات الكتابة اقلام من القصب ودواة مملوءة بالحبر ، وملك كل شخص سواء أكان اميا ام متعلما ، خاتما له استعمله للتوقيع . اذا فقد اي شخص خاتمه ، اعلن عنه في كل مكان ، ونزل منادي البلدة ينادي الى ان يجده او يصنع غيره (٣) .

وصف جرجس الخوري التعليم في الزمن الماضي فقال : "كانت الغرف ضيقة وسخة مظلمة بلا مقاعد ، يحضر التلاميذ قطعة حصير او شيئا اخر للجلوس على الارض مقوسي الظهور ، وفي حضن كل تلميذ كتابه . ويجلس المعلم أمامهم مقطب الجبين وبيده عصا طويلة ، ويبقى التلميذ في المدرسة من الصباح وحتى المساء فلا فرصة ولا راحة الا وقت الغداء ، حيث الذهاب للبيت لجلب الغداء لان الشرط يقضي باطعام المعلم على حساب التلاميذ . لم يكن هناك صفوف ، واذا غلط التلميذ ابتدره المعلم بالعصا او باللطم او بشد الاذان ، وغير ذلك من انواع الامتهان ويمتزج عويله بقراءته . واذا رأى المعلم ولدا ضجر من الدرس هوى عليه بالضرب والرفس ، واذا طلب احدنا اذنا لحاجة ضرورية ضرب على اليد . كانت المدرسة سجنا مخيفا ، والمعلم سجانا مستبدا طاغية لا رحمة في قلبه ولا شفقة ، بل لا نبالغ اذا قلنا ان حالة المجرمين في السجون كانت أرقى من حالنا ، ولذا كرهنا المدرسة والعلم والمعلمين . ولا يقع اللوم على المعلم وحده ، فالاهل اطلقوا له حرية التصرف بنا واعتقدوا ان العصا دواء لكل داء" (٤) .

---

(١) سالنامة بيروت : ص ٢١٨-٢٣٦ .
(٢) غرايبة : سورية ، ص ١٦٣ .
(٣) النمر : ج ٢ ، ص ٦٧١ .
(٤) الخوري (جرجس) : التعليم في سورية قديما وحديثا ، المقتطف م ٣١ ، سنة ١٩٠٧ ، ص ٧٤٧-٧٤٩ .

سمحت الدولة للجماعات غير الاسلاميـــة بتأسيس المدارس وادارتهـــا وكان في نابلس ٥ مدارس نصرانية للذكور ومدرستان للاناث (١) . وذكر ان جون بوين Jhon Bowen احد المبشرين بنابلس كان يعلم الاطفال على اختلاف دياناتهم، القراءة والكتابة، ومبادىء الحساب بلغتهم العربية التي كان المبشر نفسه يتقنها (٢) .

---

(١) مكاريوس : المعارف ، المقتطف ، م ٧ ص ٥٣٣ .
(٢) الدباغ نقلا عن [redacted] جيمس فن ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٧٧ .

المجتمـــع النابلســـي :

كانت الفئات الاجتماعية الرئيسية في لواء نابلس في القرن الماضي هـــي :

١- سكان المدينة في نابلس .

٢ - سكان القرى .

وأشارت السجلات الى قبائل بدوية سكنت في اطراف نابلس الشرقيـة كعرب المساعيد في وادى الفارعه في الغور الذى يعرف اليوم باسم غور الفارعة (١) . كما أشـــارت السجلات الى جماعة قليلة من السكان هي " طائفة النوّر " في بعض نواحي نابلـــس وعلى الاخص في قرية الطيبة (٢) .

نظّم الناس أنفسهم في مدينة نابلس ، كما هو الحال في المدن الاخـرى من ولاية الشام ، في تجمعات متكافلة متراصه في الزقاق والحي والحرقة او الصـنف والسوق والطائفة الدينية لغير المسلمين . وعلى هذا فقد انقسمت نابلس الـــى عدد من الاحياء او الحارات ، اطلق عليها مصطلح " المحله " (٣) . وهـــذه المحلات هي : محلة القريون (٤) ، ومحلة الحبلة (٥) ، ومحلة الياسمينة (٦) ، ومحلة العقبة (٧) ، ومحلة القيسارية (٨) ، ومحلة الغرب (٩) . واشارت السجـلات مرات قليلة الى محلة المهاجرين " وقصدت بهم الشراكسة (١٠) اذا هاجرت قبيلـة الشابسوغ من تركيا على ظهر باخرة ، اندلعت فيها النيران وهي في عرض البحــر ، واحترق ما يقارب السبعمائة شخص ، ومن سلم من الحريق نزل في عكا ، ثم انتقلـوا الى نابلس حيث سكنوا فيها مدة عام واحد ، ومنها رحلوا الى الاردن واستوطنوا عمان (١١) .

---

(١) سجل ٢٦ ، ص ١٤٥ .

(٢) سجل : ٢٠ ، ص ١٨٩ .

(٣) سجل ٧ : ص ٣٦٢ .

(٤) سجل ١٨ : ص ٣٠٦ ، سجل : ٢٠ ، ص ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٩٠ ، ٣٥٧

(٥) سجل ١٧ : ص ٤٣١ ، سجل ٢٠ ، ص ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢

(٦) سجل ٢٠ : ص ٢٩٩ ، ٤٣١ .

(٧) سجل ١٧ ، ص ٤١٣ .

(٨) سجل ٢٢ : ص ٤١

(٩) سجل ١٧ : ص ٤٣١ ، سجل : ٢٠ ، ص ٢٨٠ ، ٣٠١ ، ٣٥٧

(١٠) سجل ٢٢ : ص ، ٤١ .

(١١) المفتي (شوكت) : اباطرة وابطال في تاريخ القوقاس ، ص ٢٢٨

ضمّ الحي او المحلة أسرة كبيرة او أسر متقاربة ،او جماعة من مذهب واحد ، او مهنة واحده . وكان لكل حيّ بوابته الخاصة به (١) ، ومبانيه العامة والخاصة وكانت الجوامع في نابلس موزعة على احيائها ومحلاتها : فجامع الخضر وجامع الحنابلة بمحلة الغرب (٢) ، والجامع الكبير الصلاحي بمحلة العقبة (٣) ، وجامع الساطون بمحلة الياسمينة (٤) ، وجامع العين بمحلة القريون (٥) . وكان لكل حيّ حمّامه وسوقه وزاويته ومدرسته وناعورته وطاحونته ، وكل ذلك كي يمارس الناس واجباتهم الدينية والدنيوية على السواء براحة ويسر " وحتى لا تبتعد النساء عن بيتهن فيطمع الذى في قلبه مرض " (٦) . وتميّز كل حيّ بأزقته الضيقية ، وقد اهتموا بها فبلطوها وعنوا بنظافتها ، واختار سكان كل حيّ شيخا لهم ، ليكون صلة الوصل بينهم وبين السلطات الحاكمة . وعيّن النائب الشرعي اماما لكل محلة (٧) . وكان همّ الناس الّا تتدخل السلطات في شوءنهم وقام اهل كل حي بحل مشاكلهم عن طريق شيخهم ، وتحملوا متكافلين كل الرسوم التي تطلبها الدولة (٨) ، وعملوا على اخراج كل من لا يرضون عنه " لخوفهم من ضرر الحكام" (٩) . وخاطبت المراسيم هوءلاء الشيوخ بلفظ " مشايخ الحارات" (١٠) .

زاول سكان المدينة التجارة والصناعة والحرف المختلفة ، وتبين من المراسيم ان اصحاب المكانة و النفوذ في مجتمع المدينة هم : المتسلم والنائب والمفتي ونقيب الاشراف ، والميرالاى ، والعلماء والخطباء والمدرسين والتجار ، وشيوخ الحارات (١١) . وكذلك الوعاظ وأئمة الصلاة والموءذنين وقيّموا المساجد (١٢) . واطلقت الدولة على هذه الجماعات اسم " الاعيان" (١٣) .

---

(١) سجل ٨ : ص ٣٩٢ .
(٢) سجل ٣٤ : ص ٣٢ ، سجل ٣٧ : ص ١٧٤ .
(٣) سجل ٣٧ : ص ٤٢ .
(٤) نفس السجل : ص ٤٢ .
(٥) نفس السجل : ص ٤٢ .
(٦) برغوث : سجلات المحاكم الشرعية كمصدر اساسي لتاريخ العرب الحديث في العصر العثماني ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، م ١٩ سنة ١٩٧٢ ، ص ٣٣١ .
(٧) سجل ١٧ : ص ٣٦٢ .
(٨) سجل ٩ : ص ٣٧٥ .
(٩) برغوث : سجلات المحاكم ، الجمعية التاريخية ، م ١٩ ، ص ١٣١ .
(١٠) سجل ٦ : ص ٣٣٨ ، سجل ١٠ : ص ٢٤١ ، ٢٧٠ .
(١١) نفس السجل : ص ٣٣٨ ، ٣٤٠ .
(١٢) غرايبه : مقدمة ، ص ١٨ .
(١٣) سجل ٩ : ص ٣٨٥ ، ٣٧٤ .

لعب الاعيان دورا هاما في مدينة نابلس، فقد دافعوا عن مصالح سكان المدينة، واتصلوا بمتسلمي الدولة وولاتها، ورفعوا اليهم "العرضحالات" (١) فمثلا شكوا الى موسى طوقان متسلم نابلس الغلاء الذي وقع بالمدينة سنة ١٢٢١/١٨٠٦، وطالبوه بالعمل لدى الدولة على رفع ضريبة "بدعة الشعير" عن سكان المدينة. واستجاب المتسلم لطلبهم، ورفع عريضتهم الى سليمان باشا والي الشام، فأجابهم الوالي الى طلبهم، فرفع ضريبة الشعير وضريبة الذخيرة كليا عن اهالي المدينة (٢).

شكل الفلاحون الغالبية العظمى من سكان لواء نابلس، واطلقت الدولة العثمانية على الفلاحين المستقرين وأسرهم مصطلح "الرعايا" (٣). وورد ذلك في رسائل الولاة الى المتسلمين، فقد طلب عبد الله باشا من موسى طوقان متسلم نابلس سنة ١٢١٩/١٨٠٤ "... حفظ البلدة وصيانة الرعايا والفقرا" (٤). وعزل موسى طوقان عن المتسلمية سنة ١٢١٩/١٨٠١ "صونا للرعايا وراحة الفقرا" (٥).

عاش الفلاحون في القرى وكانت القرية، مع كل ما يلحق بها من الاراضي الزراعية والمراعي، ولا تزال اصغر وحدة زراعية (٦). وكما انقسمت المدينة الى محلات، انقسمت القرية الى حارات، وعيّنت الدولة على كل حارة مختارا، فقد انقسمت طولكرم الى اربع حارات وعين عليها اربعة مخاتير، وهذه الحارات هي: الحارة الشرقية والحارة الغربية والحارة القبلية والحارة الشمالية (٧).

نشأت في الريف اسر قوية استفادت من ضعف الدولة ففرضت سلطتها، ووجد فيها الفلاحون من السلطة ما عوّض عن سلطة الدولة المتداعية، فتكتلوا حولها وأيّدوها رغبة او رهبة. ومن هذه الاسر: آل جرار في منطقة صانور، وآل عبد الهادي في ناحية عرابة وآل الجيوسي في ناحية بني صعب، وآل قاسم الاحمد في ناحية جمّاعين. ونظرا لازدياد نفوذ هولاء الزعماء، اعترفت بهم الدولة ملتزمين للاموال الاميرية (٨). وبناء على ذلك يمكن القول ان سكان الريف في لواء نابلس كانوا

---

(١) سجل ٨ : ص ٣٩٢ .
(٢) سجل ٩ : ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .
(٣) جب وبوون ، ج ٢ ، ص ٥٦ .
(٤) سجل ٨ : ص ٣٣٣ .
(٥) نفس السجل : ص ٣٣٨ .
(٦) جب وبوون : ج ٢ ، ص ٨٨ .
(٧) سجل ١٤ : ص ٣٥٧ .
(٨) رافق : ص ٤٢٦ .

فئتين : فئة قليلة من الزعماء والاقطاعيين وشيوخ النواحي وشيوخ القرى ، وفئة كبرى وهم غالبية الفلاحين .

اشارت السجلات الى ان شيوخ نواحي جبل نابلس في مطلع القرن الماضي هم : آل جرار وآل عبد الهادى وآل قاسم الاحمد وآل الجيوسي وناصر المنصور وآل البرقاوى وآل طوقان (١) ، ومع ان آل طوقان ليسوا من اصل ريفي الا انهم كانوا شيوخا لناحية بني صعب بعد ان نزعت الدولة زعامة بني صعب عن آل الجيوسي ، ومنحتها لآل طوقان (٢) .

تغيرت صورة هذه الزعامة قليلا في العهد المصرى ، اذ تقدمت عائلات وتراجعت اخرى ، فقد تضاءل نفوذ آل طوقان وآل جرار ، اما قاسم الاحمد وناصر المنصور (٣) فقد ظلا متمتعين بنفوذهما ومكانتهما (٤) الى ان ثارا على الحكم المصرى ، فأدى ذلك الى اضعاف نفوذهما في جبل نابلس . وتقدمت ، بالمقابل ، عائلة عبد الهادى ، وزادت من مكانتها ، وثبتت نفوذها ، كما استرجع آل الجيوسي نفوذهم في ناحية بني صعب خلال الحكم المصرى للشام . وظهر من ناحية ثانية زعامات جديدة في مختلف النواحي ، ومن امثلة ذلك : احمد الخواجه ومحمود الحمد في ناحية جمّاعين ، والشيخ حماده والشيخ مرعي العبد الفتاح في ناحية وادى الشعير ، والشيخ سليمان وعمر العديلي في مشاريق البيتاوى ، والشيخ عبد الرزاق الحمدان شيخ الشعراوية الغربية ، والشيخ علي الموسى ومصطفى العبد الله ومحمد الحمدان والحاج عساف وابراهيم الصالح شيوخ الشعراوية الشرقية (٥) .

ولم يبق من نفوذ العائلات ، " اثر انسحاب ابراهيم باشا " ، سوى آل عبد الهادى وآل طوقان وآل جرار ، ثم ضعفت هذه العائلات وتسلمت الدولة زمام الامور ، وكان ضرب آل عبد الهادى في عرابة خاتمة المطاف في ذلك .

---

١) سجل ٧ : ص ٣٥٧ .

٢) نفس السجل : ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٧٣ ، سجل ٩ : ص ٣٥٨ .

٣) كان مركز ناصر المنصور في قرية جالود من مشاريق البيتاوى . الدباغ ج ٢ ق ٢ ، ص ٣٢٢ .

٤) رستم : الاصول ، م ١ ، ص ٧٦ .

٥) رستم : الاصول م ٥ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

تمتع السادة الاقطاعيون في الارياف ، بسلطة كبيرة على الناس ، واطاع الفلاحون زعاماتهم طاعة عمياء وسارعوا الى الاستجابة لكل نداء من زعمائهم لمقاتلة خصومهم دون سؤال ولا جواب" حتى انهم كانوا يتركون عشاءهم ويأخذوا بواريدهم ويتجهوا الى مكان القتال كأنهم متجهون الى فرح او وليمة ويأخذوا معهم نساءهم وبناتهم ليحملن لهم الماء ويحمسنهم ويثرن نخوتهم بالزغاليط والاهازيج والتخويف من العار وقت الاشتباك ، وكانت اموالهم مباحة للمشايخ بدون حساب" (١).
ووصف كنغليك سلطة شيوخ القرى على الفلاحين فقال : "ان صاحب النفوذ في البلد كثيرا ما يوقظ النوّام من بيوتهم في منتصف الليل ليقدموا فراشهم الى ضيف او سائح اجنبي بعد ان يكيل لهم سيلا من الشتائم ، وقد يأخذ حيواناتهم ليقدمها ركائب ويتقاضى هو اجورها بنفسه" (٢).

وثمة نقطة تستحق الاشارة وهي طبيعة العلاقة بين سكان القرى وسكان المدينة في نابلس في القرن الماضي . لم توجد بين المدينة والمناطق الريفية التابعة لها سوى روابط طفيفة تزيد على روابط اقتصادية ، وعرقل قيام اى رابطة اقوى من تلك ، احتقار ابن المدينة للفلاح واستعلائه عليه (٣) . والواقع ان هذه النظرة تعود الى ما قبل القرن التاسع عشر ، كما كانت نظرة عامة في بلاد الشام ، فقد كان آل العظم الذين ظهروا على مسرح الحكم في دمشق في القرن الثامن عشر يوصمون بانهم فلاحون (٤) .

واتضحت هذه النظرة في نابلس من مرسومين : الاول من سليمان باشا والي صيدا والشام الى متسلم نابلس سنة ١٢٢١/١٨٠٦ ، طلب منه اخراج الفلاحين الساكنين في مدينة نابلس لانهم " كما وصفهم المرسوم " عين الفساد وباعث في كل الاوقات الى ايقاظ الفتن" (٥) . وطلب المرسوم ضرورة عودة كل فلاح الى قريته ومسقط رأسه ، وأضاف المرسوم قوله " وبعد اليوم ما معكم اذن تبقوا فلاح ساكن في مدينة نابلس حيث انهم سبب ايقاظ الفتن النايمة في بلاد مولانا السلطان " . واوضح المرسوم ذاته ان هناك غرامة كبيرة ، فوق العقاب ، على كل من يأوى فلاحا في المدينة " وكلمن يصحب فلاح الى مسكنه في مدينة نابلس يكون نذرا عليه وعلى من يلوذ به ماءة كيس من بعد العقاب" (٦) .
وأرسل عبد الله باشا والي صيدا مرسوما الى احمد أغا النمر وكيل متسلم نابلس وميرالاى العساكر طالبه باخراج الفلاحين الساكنين في المدينة وقال : "ان بعض الفلاحين

---

(١) دروزه نقلا عن ابراهيم العورا : العرب ، ج ٢ ، ص ٢٢٣-٢٢٤ .
(٢) كنغليك : ص ١٠٨ .
(٣) جب وبوون : ج ٢ ص ١١٣ .
(٤) رافق : ص ٤٢٥ .
(٥) سجل ٧ : ص ٣٧٠ .
(٦) نفس السجل : ٣٧٠ .

داخلين الى نابلس وماسكين بها قناقات في محلات اهل المدينة فهذا شيء مغاير لرضانا ، فيلزمكم تبادروا برفع الفلاحين وتفريقهم الى محلاتهم " (١) . ويمكن تفسير تشدد الدولة بمنع الفلاحين من الهجرة الى نابلس ، بأنها رأت ان استمرار هجرة الفلاحين الى المدينة يوثر على سير الزراعة ، فتقل واردات الضرائب المقررة ، وينعكس هذا على خزينة الدولة وعلى وضعها الاقتصادي والى جانب ذلك فقد كانت العلاقة بين سكان المدينة وسكان الريف غير ودية ، وحدث ان شن بعض الفلاحين غارة على نابلس ، ووصلوا الى قرية بلاطة ، وحاصروا المدينة وقطعوا الطريق ، وضيّقوا على اهالي المدينة (٢) .

وبناء على ما تقدم يمكن القول ان الفلاحين لم يكونوا في نظر ولاة الدولة محل احترام ، بينما اولى هؤلاء كل عنايتهم واهتمامهم لاصحاب النفوذ والجاه الذين ينفذون اوامرهم ويجمعون الاموال والذخاير التي كان الولاة يطلبها باستمرار . فلما غضبت الدولة على آل طوقان وعلى الاخص على موسى طوقان ، عادت الدولة وأعلنت رضاها عنه وقالت : " حضر لطرفنا وطيّبنا خاطره " (٣) وأضاف المرسوم " ولا أحد يتعارضه ولا ينازعه ويكون له مراعاة ، ويكون له مساعدة وملاحظة ومناظرة والى اتباعه والى املاكه والى قراياه " (٤) . لقد كان الشعب في القرى والارياف مهملا فالصراع قائم بين الشيوخ واصحاب النفوذ ، والثروات موجودة لدى الاقطاعيين وارباب القصور والمغانم اقتسمها شيوخ النواحي والمتسلمين .

---

(١) سجل ٨ : ص ٢٦٣ .
(٢) سجل ٩ : ص ٣٩٠ .
(٣) سجل ٨ : ص ٣٨٠ .
(٤) نفس السجل : ص ٣٨٠ .

الاقليـات الدينيـــــة
===============

عاش في نابلس جماعات قليلة جدا من النصارى والسامرة واليهود ، وربما كانت نابلس اقل مناطق الشام وجودا لهذه الجماعات .

١ . **النصـــارى** .

اعطت سالنامة ولاية بيروت لسنة ١٣١٨ / ١٩٠٠ معلومات عن عدد النصارى في لواء نابلس ، فقد ذكرت ان عدد النصارى على اختلاف طوائفهم بلغ :

١١١٩	الروم
٤٩٥	لاتين
٣٨٧	بروتسانت

وجد في مدينة نابلس وحدها ٥٤٦ نسمة منهم ٢٤٤ من طائفة الروم و ١٥٦ من طائفة البروتسانت . وعاش في قضاء نابلس ١١٤٢ نسمة بينهم ٨٤٣روم و ٢٩٩ بروتسانت . ووجد في قضاء جنين ٥٠٩ نسمة منهم ٢٥٩ روم ارثوذكس و ١٢ كاثوليك و ٢١١ لاتين و ٢٧ بروتسانت . أما في جنين نفسها فقد وجد ١٨ نسمة منهم ٥ روم كاثوليك و ١٨ لاتين . وسكن قضاء جماعين ٢٤ روم ولم تذكر السالنامة عدد النصارى في قضاء بني صعب (١) .

اشارت السجلات الى وجود نصارى في جبل نابلس ينتمون الى الطوائف البروتسانتية (٢) والكاثوليكية (٣) واللاتين (٤) ، وذكرت انهم سكنوا في قرى " الزبابدة " من مشاريق الجرار (٥) و " نصف جبيل " و " برقا " (٦) ، و " سبسطية من ناحية وادي الشعير (٧) ، وتركزوا في قرية " رفيديا " بالقرب من نابلس (٨) .

---

(١) سالنامة بيروت ص ٢١٨ - ٢٣٦ .
(٢) سجل : ١٧ ، ص ٣٩ .
(٣) سجل : ٩ ص ٩١ .
(٤) سجل : ١٦ ص ١٠٧ .
(٥) سجل : ١٢ ق ٢ ص ٧٩ .
(٦) الدباغ : ج ٢ ق ٢ ص ٤٠٩ ، ٤١٧ .
(٧) سجل : ١٢ ص ٣٣٢ .
(٨) سجل : ١ ، ص ١٩٢ .

سمحت الدولة لاهل الذمة بتطبيق شرائعهم وممارسة طقوسهم، فوجد للنصارى في جبل نابلس في نهاية القرن الماضي ، ست كنائس (١) ، وفرضت الدولة الجزية والخراج عليهم (٢) ، ومثل الطوائف غير الاسلامية في صلاتها المحلية موظفون اختيروا من اعضاء هذه الطوائف وسموا " خوجه باشا " (٣) او كبار الشيوخ ، واشارت اليهم السجلات بلفظ " تبجية باش " (٤) .

عاش النصارى في النصف الاول من القرن التاسع عشر في سلام وتعاون مع المسلمين في ظل رعاية الدولة العثمانية لهم ، وكانت بينهم وبين المسلمين في نابلس صلات تجارية (٥) ، وامتلك بعضهم ثروات كبيرة حتى كان بعظهم كفلاء على الملتزمين لدى الدولة (٦) . كما كانوا يتخاصمون الى المحكمة الشرعية ، وعين النائب الشرعي اوصياء على بعض العائلات النصرانية في نابلس (٧) . ودعت الدولة متسلمي نابلس الى رعاية الجماعات غير الاسلامية واشارت اليهم المراسيم بلفظ " التبعة " (٨) ، واحيانا بلفظ " الذمة " (٩) . وارسل صالح باشا والي الشام الى الحاج مصطفى اغا متسلم نابلس سنة ١٢٤٣ / ١٨٢٧ مرسوما امره برفع الضرائب التي ابتدعها على الكنائس ، وطلب اليه الاحسان اليهم ، وتوفير مزيد من الحماية والصيانة لهم (١٠) . وكان متسلم نابلس يرسل في بعض

---

(١) سالنامة بيروت. ص ٢١٨ - ٢٢٦ .
(٢) غرايبة : سورية ص ١٠٩ .
(٣) جب وبوون : ج ٢ ص ٢١٩ .
(٤) سجل : ١٢ ص ٣٣٢ .
(٥) سجل : ٧ ص ٧٣ ، ٨٧ ، ١١٤ ، ١٩٨ ، ٢٤٤ ، ٢٧٠ .
(٦) سجل : ١٣ ق ١ ص ٢١٦ .
(٧) نفس السجل : ص ١١٤ .
(٨) سجل : ١٠ ص ١٦٠ ، سجل : ١١ ص ٢٥ .
(٩) سجل : ١٠ ص ٢٦٦ .
(١٠) سجل : ٨ ص ٣٧٦ .

الاعيان عساكر لحراسة النصارى العائدين من زيارة بيت المقدس (١) . ولا يعني هذا ان النصارى لم يتعرضوا الى بعض المضايقات في نابلس من حوادث وقتل وسرقه، ومرد هذه الحوادث يعود الى انعدام الامن ، كما ان حوادث الاعتداء كانت تقع على النصارى والمسلمين على حد سواء . فقد جاء في رسالة من مصطفى فاضل باشا بن ابراهيم باشا الى السلطان عبد العزيز سنة ١٢٨٣ / ١٨٦٦ " يظن الاوروبيون ان المسيحيين هم الذين اختصوا في الدولة العليه بالظلم والهوان وانهم وحدهم يسامون العذاب ويستذلون ان بعض الظن اثم المسلمون ولا من ينصرهم من دول الغرب اشد الاما واغرق في الظلم واتعس حالا ممن انكر رسالة النبي صلى الله عليه وسلم" (٢) . وكانت معظم المضايقات تقع من جهلة الناس لان اهل العلم والتقوى كانوا ولا يزالوا ،يرون معاملة الذمي بالحسنى تبعا لاوامر الشريعة السمحاء " ولكن اهم العلم والدين لم يكن بامكانهم رد الرعاع في زمن عمت فيه الفوضى وصار الحكم للهمجية " (٣) . وضخم البعض هذه الحوادث ووصفوا نابلس بانها مركز التعصب الاسلامي (٤) .

وقعت في النصف الاول من القرن التاسع عشر عدة احداث ادت الى الاساءة للعلاقات الطيبة بين المسلمين والنصارى ، وعملت هذه الاحداث على اثارة التعصب الديني من جديد . واول تلك الاحداث حملة نابليون بونابرت على مصر وتقدمه الى الشام ومحاولته احتلال عكا ، مما اثار شعور المسلمين وهيجهم لا سيما وان بعض النصارى ابدوا سرورا لقدوم نابليون " ولما وصل خبر الاستيلاء على العريش الى مصر تكدر المسلمون وفرحوا القبط وغيرهم من النصارى" (٥) . وزاد في

---

(١) سجل : ٦ ص ٢٦ .
(٢) فاضل باشا (مصطفى) : من امير الى سلطان الخطاب الذى رفعه الامير مصطفى فاضل باشا بن ابراهيم باشا الى صاحب الجلالة السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٦ . عني بتصحيحه ونشره توفيق الرافعي ، ص ٧ ، ٨ .
(٣) مؤلف مجهول : ص ٣٦ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٣٦ ، كنفليك : ص ١٠٩ .
(٥) نعمة الله : ص ٢٣٠ .

نقمة المسلمين ما فعله نابليون في يافا وذبحه الحامية بعد ان استسلمت .
وحاول الجزار الاستعانه بالامير بشير الشهابي ضد نابليون ، فاعتذر الامير بان اهالي الجبل ليسوا طوع يده (١) ،" بل ان الامير بشير اخذ يساعد الفرنسيين ويمدهم بما يحتاجونه من المؤونة والزاد لانه كان مسرورا مع سائر نصارى لبنان بقدوم هذا الجيش" (٢) . واتصل ابراهيم الصباغ واخوه عبود الصباغ بمن اتى مع نابليون من العلماء الفرنسيين ثم انتقلا معهم الى فرنسا (٣) .
ولذلك وبعد انسحاب نابليون من فلسطين نوى الجزار على قتل جميع المسيحيين في المناطق التابعة له ، وارسل اوامر بذلك الى القدس والناصرة ، الا انّ " سدني سميث " قائد الاسطول الانجليزى في البحر المتوسط علم بنواياه " فأرسل اليه وانّبه بأشد العبارات وهدده انه اذا جرح او قتل مسيحي واحد فسوف يقذف عكا بالقنابل ويشعل النار فيها . وهكذا اضطر الجزار لارسال اوامر مضاده" (٤) .

والامر الثاني الذى اثار الشعور الديني لدى المسلمين، وادى الى تدخل الدولة بصورة رسمية هو عدم تقيد النصارى بما قررته الدولة من تمييزهم عن المسلمين باللباس ، ومنعهم من شرب الخمر واقتنائه . وحاولت الدولة العثمانية ان تطبق تقاليد واجراءات عرفت منذ العصر العباسي . فقد تحدث " ابو يوسف " عن صفة لباس اهل الذمة ، وقال ان لباس اهل الذمة والشروط الاخرى التي قررت عليهم، وضعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٥) . ولكن ليس ثمة دلائل كما يقول " ترتون " على وجود قيود على اهل الذمة قبل زمن عمر بن عبد العزيز (٦) .

---

(١) نعمة الله : ص ٢٣٣ .
(٢) المعلوف (يوسف نعمان) : خزانة الايام في تراجم العظام ، ص ١٤٣ .
(٣) مردم (خليل) : اعيان القرن الثالث في الفكر والسياسة والاجتماع، ص ٢٠٤ .
(٤) بيركهارت : ص ٧٠ .
(٥) ابو يوسف : ص ١٢٧ .
(٦) ترتون : اهل الذمة في الاسلام ، ترجمة حسن حبشي ، ص ١٣٢ .

اصدر كنج يوسف باشا والي الشام سنة ١٢٢٢ / ١٨٠٧ امرا بمنع النصارى من شرب الخمر والعرق " والذى عنده يهرقه خارجا " ، (١) كما امر الوالي نفسه بمناداة عاليه " ان رجال ونساء النصارى يلبسون الاسود لحد الحذاء " (٢) . واتضح ان النصارى لم يلتزموا باوامر كنج باشا ، واخذ يقلدون المسلمين في ملابسهم ، واعتبر ذلك خروجا عن حدودهم المقررة.وارسل درويش باشا الى مصطفى بك متسلم نابلس سنة ١٢٣٦ / ١٨٢٠ قائلا : " صاير من طايفة النصارى تعدى في حدودهم وعمالين يقلدوا الاسلام في الملابس والعمائم فهذا ضد رضانا ولا يمكن يعطى به رخصه لا الى رجالهم ولا الى نسايهم ... اصدرنا لكم مرسومنا لكي لا تدعوهم يقلدوا الاسلام في ملابسهم ولا في عمايمهم ولا في كافة امورهم ويلزم تحذروهم وتنذروهم " (٣).وبين المرسوم ذاته لباس النصارى فقال " ... ويكونوا عمايمهم سود وملبوسهم ازرق ولباسهم ازرق " (٤).وامر المرسوم بمنع مخالطة النصارى رجالهم ونساؤهم لرجال ونساء المسلمين في حمام من الحمامات وحذرهم من مخالفة هذه الاوامر فقال : " ولا تدعوهم يخالطوا الاسلام في حمام لا نسا ولا رجال وبعد الان ان بدا احد منهم ادنى مخالفة او نقص شيء من الشروط المذكوره يحصل له الانتقام " (٥) . وختم الوالي مرسومه بدعوة المتسلم الى عدم التهاون او الغفله (٦) . وتبعا لذلك كان الناس في نابلس يستشارون اذا رأوا في اسواق المدينة رجلا بلباس افرنجي ، وعلى حد قول كنفليك " .... واذكر انه ظهر في اسواق المدينة قبل وصولي ببضعة اشهر رجل باللباس الافرنجي ، وقد اعتبر هذا تحديا للسكان فاهتاجوا وهاجموه في صورة جنونية " (٧) .

---

(١) الدمشقي : تاريخ حوادث ، المشرق ، ١٥ ص ١١٢ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١١٢ .
(٣) سجل : ٨ ص ٣٨٢ .
(٤) نفس السجل ، ص ٣٨٢ .
(٥) نفس السجل : ص ٣٨٢ .
(٦) نفس السجل : ص ٣٨٢ .
(٧) كنفليك : ص ١٠٩ .

سر النصارى عندما خضعت بلاد الشام لحكم ابراهيم باشا (١) اذ ساوى الحاكم المصرى بين جميع الناس امام القانون (٢) ، وولى النصارى الوظائف ، ورفع عنهم بعض القيود الاجتماعية وسمح للاجانب في ارسال معتمدين الى دمشق دخلوها راكبين خيلا (٣) ، وكانوا من قبل يمنعون . واخذ الاوروبيون يتجولون في اسواق نابلس دون ان يجروء احد على الاساءة لهم . وقبل الناس هذا الوضع على مضض (٤) . والغى ابراهيم باشا القيود المفروضه على ازيائهم وسمح لهم برفع اعلام تحمل شارة الصليب وعين ابراهيم باشا من بين وجوه النصارى اعضاء في مجلس دمشق (٥) . وعبر ابراهيم باشا عن دعمه للنصارى في رسالته الى مستر باركر قنصل بريطانيا في حلب قائلا : " ان الاعتزاز بالدين المسيحي يكمن بدعم اتباع المسيح . تحياتي مستر باركر والله يحفظك " (٦) . وامر الحاكم المصرى برفع جميع الضرائب التي كانت توءخذ من الاديرة والكنائس بمدينة القدس ، ورفع رسوم الاغفار عن زوار القدس . وبهذا يمكن القول ان ابراهيم باشا اخذ يعمل على تغيير الروابط الاجتماعية بين الناس ، فجعل الروابط تقوم على المصالح لا على الدين " حتى ان الرجل لم يعد يسأل عن دين جاره " (٧) . وكانت اجراءات ابراهيم باشا هذه احد الدوافع لثورة نابلس على ابراهيم باشا ، اذ وصفه النابلسيون "بالرجل الكافر" ، ورأوا ان حكومته تخالف قواعد الدين .

ومن غريب الامر ان النصارى وقفوا موقفا عدائيا نحو ابراهيم باشا في نهاية عهده ، ذلك ان ابراهيم باشا طلب الشبان من مسلمين ونصارى لتجنيدهم في الجيش ، فرفض النصارى " وقاموا على الذين حرروهم من ربقة الاستعباد واتفقوا مع الدروز على محاربة ابراهيم باشا لانهم عاشوا اجيالا تحت الحكم العثماني ولم يوءخذ منهم اولادهم ليحاربوا مع الدولة العلية فكانوا يوءثرون الظلم على هذا الامر " (٨) .

---

(١) فائز : ص ٢٧ ، نوار : ص ٤٠٦ .
(٢) زيادة : ص ٨٢ .
(٣) العطار : ج ١ ص ١٦٨ ، غرايبة ، سورية ، ص ٥٨ .
(٤) كنفليك : ص ١٠٦ .
(٥) نفس المصدر : ص ١٠٦ .
(٦) Barker : P ; 198 .
(٧) كنفليك : ص ١٠٦ .
(٨) موءلف مجهول : ص ٦٩ .

وسارت الدولة العثمانية على سياسة ابراهيم باشا في موقفها من النصارى بعد استعادة سيطرتها على المنطقة . وتأكدت هذه السياسة في قوانين التنظيمات العثمانية الاول : " في خطي شريف كلخانه " ،الذى نشر في قصر الكلخانه اى قصر الزهور سنة ١٢٥٥ / ١٨٣٦ (١) ، وقرىء هذا الخط على سمع سفراء الدول وكبار رجال الدولة والبطريرك المسكوني وبحضور السلطان عبد المجيد (٢) . وتعهدت الدولة بموجب هذا المرسوم باحترام الحريات والممتلكات والاشخاص بغض النظر عن معتقداتهم الدينية واصلهم القومي (٣) " والغاية الوحيدة من التنظيمات الخيرية هي ان يكون ساير الاهالي من اى صنف كان من رعايا الدولة مشموليـــن من كل وجه بكل نوع من الحماية والصيانة " (٤) .

وجاء خط همايون الذى اصدره السلطان عبد المجيد ١٢٥٥/١٨٣٩- ١٢٧٨ / ١٨٦١ ، فأكد على مبدأ المساواة القانونية والمدنية لكافة رعايـــا الدولة . ومما جاء فيه بهذا الخصوص :

١ . اعلان المساواة في المعاملة بين جميع الطوائف (٥) .
٢ . ازالة كافة الالفاظ والتعبيرات من المحررات الرسمية المتضمنة تحقير جنس لجنس آخر في اللسان او المذهب او الجنس من افراد الدولة (٦) .
٣ . فسح المجال امام كافة رعايا السلطان للمساهمة في خدمة الدولة " ان استخدام مأمورى السلطنة سيصير قبولهم من اى ملة كانت بحسب اقتدارهـــم واهليتهم كما يقبلون في المدارس الملكية والعسكرية بلا تمييز بينهم وبين المسلمين " (٧)

---

(١) لوتسكي : ص ١٤٨ .
(٢) رستم : لبنان ص ٨٨ ، انيس (محمد) : الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ - ١٩١٤ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .
(٣) غرايبة : سورية ص ٢٦ .
(٤) سجل : ١١ ص ١٥٤ .
(٥) عوض : ص ٢٦ - ٢٨ .
(٦) فريد : ص ٢٥٨ .
(٧) نفس المصدر ص ٢٥٨ .

٤ . انشاء محاكم مختلطة للفصل في القضايا المدنية والجنائية .
٥ . المساواة بين جميع رعايا الدولة في الحقوق والواجبات .
٦ . وعد السلطان بالسماح للاجانب بالتملك في الدولة العثمانية (١) .
٧ . السماح لكل طائفة بانشاء مدارس اهليه للمعارف والحرف والصنائع تحت اشراف مجلس المعارف (٢) .

تبع اعلان التنظيمات ازدياد النفوذ الاوروبي في الدولة العثمانية وولاياتها ومن ضمنها ولاية الشام . واخذ قناصل الدول يتدخلون في الشؤون الداخلية للسكان . وأشار الى ذلك السفير البريطاني في القسطنطينية سنة ١٢٦٨ / ١٨٥١ اذ كتب قائلا : " كثير من القناصل الاجانب بما فيهم قنصلنا اخذوا يتدخلون في الشؤون الداخلية والاملاء على الباشوات بشكل عشوائي في رسم الخطط العريضة لسلوك الباشوات في الامور الداخلية ، وان القناصل الفرنسيون والانجليز تدخلوا في البلاد بدعم المجموعات المتنافرة في الجبال والمجموعات الاخرى وتمثل ذلك واضحا في جبل لبنان حيث دعم الفرنسيون المارونيين ، ودعم الانجليز الدروز . وفي جبل نابلس تدخل القناصل الانجليز والفرنسيين في العائلات المحلية كطوقان وعبد الهادي ، وتدخلوا في جبل القدس بين عائلتي اللحام وابي غوش" (٣) .

ولم يوجد في نابلس قناصل اوروبيين غير انه وجد لقناصل انجلترا وبروسيا وفرنسا وكلاء في نابلس ، كان واجبهم تبليغ اية شكوى او تذمر للسلطات المحلية ، وابلاغ القناصل بالقدس جميع الحوادث كما تقع . وكان وكيلاء الالمان والانجليز من النصارى المحليين وهما سمعان قعوار وكيل قنصل بروسيا وعودة عزام وكيل قنصل انجلترا ، اما الوكيل الفرنسي فهو محمد بن القاسم (٤) وبلغ النفوذ الاوروبي ذروته الى درجه ان ادعت فرنسا حماية الكاثوليك في الدولة العثمانية ، واعتبرت روسيا نفسها حامية الارثوذكس ، وعطفت انجلترا على الدروز (٥) .

---

(١) عوض : ص ٢٦ - ٢٨ .
(٢) فريد : ص ٢٥٨ .
(٣) Maoz : P ; 245 .
(٤) الدباغ : نقلا عن جيمس فن ، ج ٢ ق ٢ ص ١٧٧ ، غرايبة ، سورية ط ؟
(٥) عوض : ص ٢٤٥ .

اخذ القناصل الاجانب يرفعون اعلام دولهم على قنصلياتهم ، فرفع العلم النمساوى في غزة من قبل وكيل القنصل المحلي سنة ١٢٧٣ / ١٨٥٦ ، ورفع العلم الفرنسي على القنصلية الفرنسية في القدس (١)

اعترض المسلمون على " خطي همايون " الصادر سنة ١٢٧٣ / ١٨٥٦، والذى دعا الى المساواه التامة بين السكان امام القانون بدون تمييز بسبب الدين او اللغة او الجنس . كمالم يرض به النصارى الذين كانوا يهدفون الى التخلص من الحكم العثماني الاسلامي ، ولذا اوجدت التنظيمات انشقاقا بين السكان (٢)، بدلا من ان تصهرهم في بوتقة واحدة . وتمثل رفض النصارى في الانخراط في التجنيد العسكرى الذى نصت عليه التنظيمات ، وطلبوا ان يعودوا الى اداء البدل العسكرى، فأجيبوا الى طلبهم (٣) .

ادى مرسوم خطي همايون، وتزايد النفوذ الاوروبي الى رد فعل كبير من السكان المسلمين تجاه النصارى . وازداد استياء اهل نابلس سنة ١٢٧٣/١٨٥٦، وساد المدينة موجة من الاضطرابات المعادية للاوروبيين قتل خلالها احد النصارى ودمرت بيوت بعضهم ، وهوجمت القنصليات الاوروبية فيها . وبدأت الاحداث عندما قام الكاهن الانجيلي في القدس، وبمبادرة منه بلا موافقة السلطات بوضع جرس على كنيسة محلية في نابلس ، وبدأ قرع ذلك الجرس ، ~~وبنفس الطريقة بعد يوم مرتين وفي نيسان ١٨٥٦ / ١٢٧٢~~ .

وقامت القنصليات الفرنسية والانجليزية والبروسية برفع اعلامها بمناسبة ميلاد ابن امبراطور فرنسا ، فهاجت مشاعر الناس بنابلس . وفي يوم الجمعه ٣ نيسان سنة ١٢٧٣ / ١٨٥٦ خرج الناس متظاهرين محتجين ، وفي نفس اليوم الذى

---

(١) Maoz : P ; 245 .

(٢) غرايبة : سورية ، ص ٣١ .

(٣) بيهم ~~(...)~~ فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٥٥ .

حدث به المظاهرة ، حصل اطلاق نار على المسلمين من قبل احد المبعوثين الانجليز ويدعى " لايد " وادّعى المبشّر الانجليزى ان المسلم القتيل هو شحاد وقد قتل برصاصة انطلقت خطأ من بندقية المبشّر ، بينما كان الشحاد يحاول الاعتداء بعنف ، فكانت هذه الحادثة اشارة البدء للاضطرابات ، فمزقت الاعلام العثمانية والاوروبية ، واستطاع محمود بك عبد الهادى حاكم نابلس السيطرة على الوضع (١) . وعاقبت الحكومة المعتدين وعوّضت على المنكوبين ب ٢٥ الف قرش (٢) . وذكر الدباغ انه لا كان لاتباع آل طوقان البعيدين يومها عن السلطة ، يد في الاحداث ، وذلك نكاية بآل عبد الهادى . (٣)

وصلت اخبار الاحداث الى بيروت ، فارسل واليها خورشيد باشا يستدعي محمود بك عبد الهادى قائمقام نابلس . وارسل قنصل بريطانيا العام في بيروت يستوضح الوالي عن تلك الفتنة ، وقدم القنصل كشفا باسماء مثيريها ذاكرا : القاضي والشيخ محمد عاشور وعبد الفتاح اغا النمر (٤) . وفرضت الحكومة العثمانية غرامة قدرها ٥٥ الف قرشا على المحكوم عليهم بنابلس ، ودفعتها لقنصل بريطانيا تعويضا للمنكوبين وسمح باقامة حفلة لاعادة رفع العلم الانجليزى ، ودفعت الحكومة البريطانية عشرة الاف قرش دية المسلم ، واخرج المبشر البروتستانتي الذى قتل المسلم الى انجلترا (٥) .

٢- السامرة

السامرة طائفة من طوائف اليهود وهم صنفان : صنف يقال لهم الدستان وصنف يقال لهم الكوشان (٦) . ويعتقد السامريون انهم من بني اسرائيل من سبط لاوى ويوسف عليه السلام ، ونفى دروزة ان تكون طائفة السامرة من عبرانيي فلسطين وقال انما هم من اشوريي العراق (٧) .

---

(١) Maoz : PP ; 226- 227 .

(٢) عبود : ص ٨٩ .

(٣) الدباغ : ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٧٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٨ .

(٥) الدباغ : ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٢ .

(٦) الخالدى (احمد سامح) : اهل العلم والحكم في ريف فلسطين .

(٧) دروزة : حول الحركة العربية الحديثة ، ج ٢ ، ص ١٢ .

وسبب تسميتهم بالسامرة حسب ما جاء في مخطوطتهم التاريخية المحفوظة لديهم ان شخصا اسمه سامر اشترى مدينة سبسطية ثم جاء بخث نصر البابلي واحتل سبسطية ونفى الاسرائيليين الى بابل ، ودعاهم بالسامرة نسبة الى سامر الذي اشترى المدينة وبناها (١) . وينقسم السامرة اليوم الى خمس عائلات هم : الكهنة ، والطيف ، والراوى وصدقه ، وامفرج ، ويوشع . (٢)

والسامرة اقل الطوائف عددا (٣) ، وهم اصغر طائفة دينية في العالم (٤) . وافادت سالنامة بيروت ان عدد السامرة في لواء نابلس سنة ١٣١٨ / ١٩٠٠ بلغ ١٦٧ سامريا ، منهم ١٦٤ سامري في المدينة وحدها (٥) . واشارت السجلات الى وجود السامرة بنابلس وفي قرية اجنسنيا القريبة منها (٦) . ويرجع السبب في قلة عددهم انهم لا يتزوجون الا من بعضهم البعض (٧) .

بقيت نابلس ، ولا تزال ، الموطن الاول لسكنى السامرة . فقد قال ابن حوقل " ونابلس مدينة السامرية ويزعم اهل بيت المقدس انه ليس بمكان من الارض سامري الا منها اصله" (٨) . وهم لا يسكنون غيرها الا لحاجة (٩) . ويعتبر السامريون مدينة نابلس مدينة مقدسة " ويحجون الى جبل جرزيم" (١٠) . اذ يعتقدون ان موسى عليه السلام كلّم الله سبحانه وتعالى فوقه ، ولذا فهم يقيمون طقوسهم الدينية اثناء عيد الفصح ، فينحرون الذبائح ويقيمون الصلوات في العراء كل عام (١١) . ويلبس الكهنة الجبّة

---

(١) عارف : ص ١٠١
(٢) نفس المصدر : ص ١٠٤ .
(٣) مؤلف مجهول : ص ٨ .
(٤) بلدية نابلس : ص ٧ .
(٥) سالنامة بيروت : ص ٢١٨ - ٢٣٦ .
(٦) سجل ١٥ : ص ٣٧١ .
(٧) الدباغ : ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٢٦٠ ، النمر : ج ٢ ، ص ٥١ .
(٨) ابن حوقل : ص ١٥٩ .
(٩) بهجت (علي) قاموس الامكنة والبقاع التي يرد ذكرها في كتب الفتوح .
(١٠) القلقشندي (ابو العباس احمد بن علي) : صبح الاعشى في صناعة الانشا ج ٤ ، ص ١٩٤ .
(١١) بلدية نابلس : ص ٧ .

ويضعون على روؤسهم العمامة الحمراء مرسلين شعر رأسهم ولحيتهم ، اذ يحرم على كهنتهم قصه (١) .

عاملت الدولة العثمانية والمسلمون في نابلس طائفة السامرة معاملة حسنة ولذا انجذب السامرة الى المسلمين " ولم يترددوا في التخلص من لسانهم القديم واتخاذ العربية لغة لهم ، وهجر السامرة تدريجيا اللغة الارامية ، وتعلموا العربية وكتبوا بها ، كما ترجموا ادبهم بالعربية الفلسطينية وحروفهم بدون نقط (٢) .

واشارت السجلات ايضا الى ان المحكمة الشرعية بنابلس اشرفت على معاملات البيع والشراء لدى السامرة ، ووزعت الارث بين افرادهم (٣) . ولم ترد اية اشارة الى تأثر السامرة بالاحداث التي وقعت بنابلس سنة ١٢٧٣/١٨٥٦ .

٣ - اليهود :

كان عدد اليهود في نابلس ضئيلا في القرن الماضي ، فقد بلغ عددهم في لواء نابلس سنة ١٣١٨/ ١٩٠٠ ، ثمانية وخمسين يهوديا منهم ٥٤ يهوديا في مدينة نابلس وحدها ، وثلاثة يهود في قضاء جنين ، ويهودي واحد في جنين نفسها (٤) . وكانت الحركة الصهيونية قد تمكنت من ادخال عشرين يهوديا الى فلسطين سنة ١٨٨٢ ، واسس هؤلاء مستوطنة في قرية " ملبّس " التي تعرف اليوم باسم " بتاح تكفا " كما اسس اليهود مستعمرة اخرى لهم في قرية الخضيرة سنة ١٨٨٦ ، وادى ذلك الى وقوع الاصطدامات بين السكان والغزاة ، فقامت الدولة العثمانية سنة ١٨٨٨ بفرض قيود على هجرة اليهود الى فلسطين الذين كانوا يدخلون البلاد كسياح ثم يبقون فيها (٥) .

اشارت السجلات الى وجود اليهود بنابلس في القرن الماضي فقد جاء ما ذكره " ... اشترى المعلم سليمان من طايفة اليهود المتوطنين بنابلس " (٦) .

---

(١) عارف : ص ١٠٥ .
(٢) كاستر : السامرة ، دائرة المعارف الاسلامية ، م١١ ، ص ٩٧ - ٩٩ .
(٣) سجل ٧ : ص ٢٢٨ .
(٤) سالنامة بيروت ، ص ٢١٨ - ٢٣٦ .
(٥) الكيالي (عبد الوهاب) : الموجز في تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٢٠٣ .
(٦) سجل ١٢ : ق ١ ، ص ٢٤٢ .

وعمل بعض اليهود بمهنة الصياغة (١) .

كان لليهود نفوذ كبير في ولاية الشام في القرن التاسع عشر ، وذلك نظرا لثرواتهم الضخمة ، وعملهم بمهن الصياغة والصيرفة ، فقد تسلم عبد الله باشا ، الذى ادار خزينة الجزار الحكم سنة ١٨١٩/١٢٣٥ ، بمعاضدة المعلم حاييم اليهودى . كما اثار اليهود النزاع بين عبد الله باشا الخازندار وبين درويش باشا انتقاما من عبد الله باشا الذى خنق حاييم ورمى جثته في البحر ، وكان للمعلم حاييم اقارب في دمشق وهم الصيارف : سلمون ورافايل من عائلة فارحي ، اضمر هوءلاء الانتقام من عبد الله باشا معتمدين على ثروتهم ونفوذهم ، واستخدم سلمون ورافايل درويش باشا اداة لانتقامهم من باشا عكا ، وحملوه على محاربته وتجريد قوات الدولة عليه . واراد احد رجال الدولة التضييق عليهم " فضبط دفاترهم وارسلها الى الاستانه (استانبول) ، لاجل فحص قيودها ، ولكنها ما لبثت ان اعيدت اليهم دون اى ارهاق (٢) . ويمكن تفسير ذلك كما يقول المغربي اما بصحة قيودها او ان الرشوة لعبت دورها التقليدى لدى الحكام . وتحدث المغربي عن نفوذ اليهود في الشام في القرن الماضي " واستبدادهم باعمال الحكومة وشوءونها الحساسة واسرارها المالية وكانت خزينة الشام في ذلك الوقت بيد افراد من عائلة فارحي (٣) .

وكما لم يتأثر السامرة باحداث القرن الماضي ، لم يذكر ان اليهود تأثروا باحداث نابلس سنة ١٨٥٦/١٢٧٣ ، ويمكن القول ان حالة اليهود في نابلس بل في سوريا وفلسطين كانت اكثر سلامة وامنا من زملائهم النصارى . (٤)

---

(١) سجل ١٣ : ق ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) شلبي : نزوح الامير ، المشرق ، ٤٥ ، ص ٢١٩ .

(٣) المغربي : يهود الشام منذ مائة عام ، مجلة المجمع العلمي بدمشق ، م ٩ ، سنة ١٩٢٩ ، ص ٦٤٢ — ٦٤٥ .

(٤) Maoz : P ; 240 .

النزاعـــــات المحليـــــة

تميز الوضع الاجتماعي في نابلس في النصف الاول من القرن التاسع عشـــــر باضطرابات محلية ، ونزاعات عائلية بين العائلات القوية المتنافسة وهي : آل جـرار ، وآل طوقان ، وآل الجيوسي ، وآل القاسم ، وآل الريّان . ووصف بيركهارت طبيعة سكّان نابلس في القرن الماضي فقال :" وهم أناس لا يستقرون على حال ويتنازعــــون مع بعضهم بعضا باستمرار" (١) .

أهل القرن التاسع عشر ومتسلمية نابلس بيد آل طوقان ، بينما متسلمية جنين بيد آل جرار . (٢) ونشـأ صراع خفي على السلطة في جبل نابلس بين هاتين العائلتين واستطاع يوسف الجرار الحصول على متسلمية نابلس سنة ١٢١٦/١٨٠١ ، ولـــم يلبث آل طوقان ان استعادوها فترة طويلة ، الى ان استطاع احمد الجرار الحصول على متسلمية نابلس سنة ١٢٣٥/١٨١٩ ، وذلك اثر غضب الدولة على آل طوقـــان واخراجهم من نابلس . واستمر الخلاف والتنافس قائما الى سنة ١٢٤٦/١٨٣٠ حينما حاصر عبد الله باشا والي صيدا آل جرار في قلعة صانور . ونظرا لما قام به اسعـد طوقان من دور فعّال في الوساطة بين عسكر عبد الله باشا المحاصر لقلعة صانور وبين آل جرار ، وأسفرت هذه الوساطة عن منح الوالي الامان لبيت الجرار على انفسهم وعيالهم واموالهم على ان يخرجوا من القلعة ويسكنوا حيث شاءوا (٣) . وكان لدور اسعد طوقان اثر طيب في نفس آل جرار ادى الى نسيان خصوماتها السابقة وبداية التقارب بينهمـا .

وحصلت كذلك نزاعات بين آل طوقان وآل الجيوسي في النصف الاول من القرن التاسع عشر . فقد اتهمت الدولة شيخ بني صعب من آل الجيوسي بحرق ذخائر الجيش التركي الذاهب الى مصر ، فعاقبت الدولة عائلة الجيوسي بتجريدهم من اقطاعهـم ومن زعامتهم لناحية بني صعب ، واعطي ذلك لآل طوقان (٤) . واتضح ذلك مـــن مرسوم قائد الجيش العثماني الى متسلم نابلس سنة ١٢٢٦/١٨١١ " ان الشيــخ الجيوسي كان له من قديم الايام يد التعاطي بالناحية المذكورة وارتفعت يده عنهـا ومقارشتها بموجب الامر العالي " (٥) .

---

(١) بيركهارت : ص ٧٢ .
(٢) سجل ٦ : ص ٢٧٢ ، سجل ٨ : ص ٣٧٢ .
(٣) الشهابي : لبنان في عهد ق ٢ ، ص ٨٠٨ - ٨١٠ .
(٤) النمر : ج ١ ، ص ١٩٠ .
(٥) سجل ٧ : ص ٣٥٦ .

والسبب في ذلك كما قال مرسوم آخر " خروج الجيوسي عن رضى الدولة العلية لعدم صدق خداماته الى اوردى همايوني " (١).

ورفض اهالي بني صعب زعامة آل طوقان عليهم ، وحاولوا القيام بحركات معادية بقيادة الجيوسي . وارسل الوالي سليمان باشا الى اهالي ناحية بني صعب يهددهم ويطالبهم بالتوقف عن كل حركاتهم (٢). ثم استدعى سليمان باشا آل طوقان وآل الجيوسي وعقد بينهم اتفاقا تنازل آل طوقان بموجبه عن ثلاث قرى من ناحية بني صعب هي : كور وباقة والفندق ، للشيخ احمد الجيوسي وابن عمه عساف ، وخصصت حاصلات هذه القرى الثلاث " معاشا لاحمد وابن عمه عساف ليقوم به حالهم وانهم يكفوا انفسهم من ناحية بني صعب " (٣) ، واستمرت سيطرة آل طوقان على ناحية بني صعب الى سنة ١٢٣٩/ ١٨٢٣ . واستعاد الجيوسي اقطاعه وزعامته ونفوذه على ناحية بني صعب خلال الحكم المصرى .

ساءت العلاقات بين آل جرار وآل عبد الهادى منذ احداث صانور اذ اتهم الشيخ عبد الله الجرار الشيخ حسين عبد الهادى بتحريض عبد الله باشا والي صيدا على هدم قلعته ، اوان عبد الهادى لم يتحرك لنجدة الجرار بشكل فعال (٤). وتعمقت الخلافات بين العائلتين خلال الحكم المصرى ، اذ حسد آل جرار عائلة عبد الهادى المكانة والنفوذ اللتين تمتعت بهما في ظل الحكم المصرى . واشترك آل جرار في الثورة على ابراهيم باشا ولكنهم فشلوا . واستمرت المنازعات بين هاتين العائلتين ، اثر انسحاب ابراهيم باشا من الشام ، وامتدت الى سنة ١٢٧٥/ ١٨٥٨.

ومثلما ساءت العلاقات بين آل جرار وآل عبد الهادى فقد ساءت ايضا بين آل طوقان وآل عبد الهادى . وكانت احداث صانور نقطة البداية في ذلك ، اذ قيل ان اسعد طوقان " حرض عساكر عبد الله باشا القادمة لحصار القلعة على مهاجمة

---

(١) سجل ٧ : ص ٣٥٨ .
(٢) نفس السجل : ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
(٣) نفس السجل : ص ٣٥٦ .
(٤) النمر : ج ١ ، ص ٢٧٥ .

عرابـة التي تخص عبد الهادي . وقد كانت فيما بين المذكورين مناظرة . ونهب عسكر الدولة قرية عرّابة وغلال وارزاق عبد الهادي "(١) . وسكت آل طوقان على مضض على فقدان نفوذهم خلال الحكم المصري ، ولكنهم جددوا نشاطهم اثر انسحاب ابراهيم باشا ووقف آل طوقان وآل جرار ضد آل عبد الهادي .

كذلك وقع خلاف بين عائلة طوقان وعائلة القاسم المتنفذة في ناحية جمّاعين . وابتدأ الخلاف سنة ١٢٣٢/١٨١٦ ، وكما ذكر الدباغ نقلا عن ابراهيم العورا " ان الخصومه كانت بين موسى واسعد طوقان من ناحية ، وبين قاسم الاحمد من جهة أخرى ، وقد قتل جماعة من آل طوقان ثمانية اشخاص من عائلتهم عوضا عن اقاربهم المقتولين . وكان من المنتظر ان يظفر قاسم الاحمد بأعدائه حيث كانت نصف نابلس تشد أزره بالاضافة الى معقله في بيت وزن ذات الموقع الحربي الممتاز . وتمكن الوالي سليمان باشا من اخماد تلك الفتنة بطلبه شيوخ الجبل الى عكا للمثول بين يديه . وقد اظهر سليمان باشا براعة فائقة للوصول الى اجراء الصلح بين المتخاصمين ، واخيرا طيّب خاطر قاسم الاحمد ، وامر موسى بان يدفع له تسعين الف قرش دية للمقتولين . وبعد ان خلع الوالي الخلع اللائقة على شيوخ الجبل اذن لهم بالعودة الى قراهم فعادوا مغتبطين مسرورين " (٢) .

استمرت العداوات بين العائلات بعد انسحاب ابراهيم باشا من الشام سنة ١٢٥٧/١٨٤١ ، واتخذت طابعا اعنف من ذي قبل ، وكانت على اشدها بين آل جرار وآل عبد الهادي . بيّن ذلك مرسوم صادر من متصرف القدس الى متسلم نابلس سنة ١٢٦٢/١٨٤٥ جاء فيه " ... وللان بيت جرار وبني عبد الهادي ومن تابعهم من مشايخ وطوائف نواحي سنجقي نابلس وجنين من العداوة والحروب وحركات الفتن وسفك الدما وسلب الاموال وتلف الارزاق وفقدان الراحة والامنية بين اهالي تلك الجهات " (٣) . ودعا مرسوم آخر سليمان طوقان متسلم نابلس بان يبذل قصارى جهده لاخماد الفتنة " واستحصال الالفة والمصالحة والمسالمة ليحصل الجميع على مراتب الراحة والامنية " (٤) .

---

(١) الشهابي : لبنان في عهد ، ق ٢ ، ص ٨٠١ .
(٢) الدباغ : ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٤٨ ، دروزة : حول ، ج ٢ ص ٢٢٥ .
(٣) سجل ١٠ : ص ٢٣٩ .
(٤) نفس السجل : ص ٢٣١ .

واتسعت هذه الخصومات فشملت العشائر البدوية ، فوقف عرب الصقر الى جانب آل جرار ضد آل عبد الهادى (١) . وترجع صداقة عرب الصقر لآل جرار منذ ايام ظاهر العمر حينما اتفق ابراهيم الجرار ورشيد الجبر شيخ عرب الصقر على حرب ظاهر العمر (٢) . وكان ظاهر العمر قد اقتطع كثيرا من ارض مرج ابن عامر وانتزعها من سكان جبل نابلس وعرب الصقر ووهبها لسكان الناصرة (٣) . ويبدو ان آل جرار وحلفاءهم استطاعوا التغلب على آل عبد الهادى وحلفائهم ، فقد دعت مراسيم الدولة الى الاصلاح بين الفريقين ، وطالبت كتلة الجرار رفع ايديهم عن الاراضي والممتلكات التي استولوا عليها . فمن مرسوم موجه الى شيوخ آل جرار (محمد الحاج احمد، والشيخ احمد اليوسف وقاسم اغا الداود الجرار) جاء ما نصه " ... صدرت الاوامر الشريفة من جانب سعادة مشير اوردى عربستان ومن سعادة مشير ايالة صيدا وطرابلس الشام باجراء المصالحة فيما بينكم وبين عايلة عبد الهادى ومشايخ ووجوه نواحي وقرايا سنجق نابلس وجنين وحيث عايلة عبد الهادى لهم ارزاق واملاك في نواحيكم وواضعين اليد عليها بغير طريقة حقية فاقتضى تسليمهم ارزاقهم واملاكهم طبق الرضا العالي الشاهاني سواء في القرايا في جهة المشاريق او في وادى الباذان من طواحين ودكاكين وقهاوى وحمام ومحلات وبساتين وزيتون واراضي وكامل التعلقات المختلفة وتسليمها بالتمام والكمال" (٤). وأرسل مرسوم آخر بنفس الصيغة الى الشيخ رباح السعيد ونمر الفياض شيوخ عربان الصقر دعاهم الى " رفع يدهم عن ارزاق وطواحين عائلة عبد الهادى واقاربهم من دون اعاقة ولا تأخير دقيقة واحدة " (٥) .

لم تكن الخلافات بين آل جرار وآل عبد الهادى هي الوحيدة في جبل نابلس ، بل حدثت في نفس الفترة منازعات مسلحة بين آل القاسم ، الذين كانت مشيختهم على النصف الشرقي من جمّاعين ، وبين آل الريّان الذين يمتون لهم بصلة القرابة ، ولهم الزعامة على النصف الغربي من جماعين . وقد بدأت الخلافات بين الاسرتين قبيل الحملة المصرية ، ولم يثر آل ريّان على الحكم المصرى مثلما فعل آل القاسم ، لذا بسطوا مشيختهم على ناحية جماعين ، وعمد متصرف القدس الى تهدئة الوضع ، فنفى عددا من زعماء الاسر الى خارج البلاد سنة ١٢٦٦/١٨٤٩ ، وكان

---

(١) سجل ٩ : ص ٢٦٩ .
(٢) الصباغ (ابراهيم) : تاريخ ظاهر العمر ، مخطوط ، ص ٥٣ ، ٥٤ ،
الصباغ (عبود) : الروض الزاهر في تاريخ ظاهر ، مخطوط ، ص ٧ ، ٨ .
(٣) سمارة (حنا) : مختصر تاريخ الناصرة ، مخطوط ، ص ٢٢ .
(٤) سجل ٩ : ص ٢٦٩ .
(٥) نفس السجل : ص ٢٦٩

بينهم زعيم آل الريّان الشيخ محمد الصادق ، فخفّت النزاعات فترة من الوقت ، لكنها ما لبثت ان احتدمت بين الاسرتين لان بني القاسم فرضوا سيطرتهم على القسم الخاص بني ريّان من جماعين (١) . وأرسل متصرف القدس مصطفى زريف باشا الى سليمان بك طوقان متسلم نابلس أنّبه تأنيبا شديدا لعدم تقيده باوامر الدولة ، وتقاعسه في منع حصول الحوادث التي وقعت ، ودعاه الى عقد مجلس اللواء للنظر في الخلافات بين الشيخين وحلها واعلامه بذلك (٢) . ازدادت حدة الاضطرابات واتخذت طابعا اوسع من ذي قبل وذكر النمر ان العائلات المحلية في جبل نابلس انقسمت في هذا العام الى فريقين ، فريق النمر ، وفريق طوقان . واتسمت هذه الانقسامات بطابع العصبية القبلية ، اذ كان الفريق الاول قيسيا ، وكان الفريق الثاني يمنيا ، ووقف مع الفريق الاول آل عبد الهادى وفرع من آل جرار وآل الجيوسي وعشائر " الحفاة " في وادى الشعير ، وآل القاسم . ووقف مع الفريق الثاني فرع من آل جرار وآل البرقاوى . واتسعت هذه التكتلات بانضمام العشائر البدوية ، فانضمت عشيرة العدوان الى الصف القيسي (٣) ، وانضمت الصقر الى الصف اليمني (٤) . ولمّحت السجلات باشارة عابرة الى وجود مثل هذه الفرق ، حيث أمر والي صيدا سليمان طوقان متسلم نابلس . العمل على انهاء " مقولة الصفوف والحلوق ودعا الناس الى ضرورة التوقف عن هذه المقولة وازالة الفتن واستتباب الامن " (٥) . ولكن ليس ثمة اشارة عدا اشارة النمر ، الى فريق آل النمر وفريق آل طوقان .

تحدثت السجلات عن استمرار الاضطرابات والحركات المعادية بين عائلتي عبد الهادى وجرار . فقد ورد في مرسوم يوسف ضيا حاكم نابلس سنة ١٢٧٥/١٨٥٨ " ... تحيطون على ان محمد الحسين احد عايلة بني عبد الهادى واقرباه الذين اعتادوا على اجراء الحركات الغدرية واتلاف النفوس البشرية منذ زمن طويل في سنجقي نابلس وجنين " (٦) .

---

(١) دروزة : حول ج ٢ ، ص ٢٧٣ .
(٢) سجل ١١ : ص ٥٨ .
(٣) آل العدوان : من قبائل شرق الاردن وموطنها في البلقاء . بيك باشا ص ١٦٩ .
(٤) النمر : ج ٢ ، ص ٤٢٣ - ٤٢٥ .
(٥) سجل ١٠ : ص ٢٧٤ .
(٦) سجل ١٢ : ص ٢٤٤ .

قام آل عبد الهادى وعرب العدوان بضرب اسرة جرار وعرب الصقر وقتلـــوا ربان السعيد شيخ مشايخ الصقر (١)، وانتصروا عليهم في موقعة قرب جنين (٢) . ولذا قامت الدولة بتجريد قوة عسكرية الى عرّابة " ... وبما ان الحكومة المحلية قـد شاهدت تحشد العايلة المذكورة في قرية عرابة قد صار سوق القوة العسكرية" (٣) . وشرح مرسوم حاكم نابلس كيف ان الدولة ارسلت النصائح والتهديدات لبيت عبد الهادى، الا انهم " هجموا على القوة العسكرية التي كانت وصلت الى قرية عنزة فلاجل ذلـــك جرى بالمقايلة بالمثل ولاجل شهر السلاح على العساكر تقرر تأديب الاشقيا" (٤) . واعلن حاكم نابلس في مرسوم لا حق الامان لمن يعود الى بلده " ومن لم يرجع يعتبـر من الشقاة وواجب حصول لهم المجازاة" (٥) .

ارادت الدولة بهدم عرابة سنة ١٢٧٦/١٨٥٩ ان تضع حدا لهذه العصبيات وان تثبت وجودها . وانتهت بهدم عرابة حروب قيس ويمن في هذه البلاد (٦) . وقـد مثّلت هذه الروح العصبية ظاهرة هامة جدا في الحياة الاجتماعية ، والتي الحقـــت اكبر الضرر بحياة الناس . (٧)

---

(١) مسعـــود : ص ٩٢ .
(٢) الدباغ : ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٦٢ .
(٣) سجل ١٢ : ص ٢٤٤ .
(٤) نفس السجل : ص ٢٤٥ .
(٥) سجل ٢٢ : ص ٢٤٥ .
(٦) الدباغ : ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٦٣ .
(٧) انيس : ص ١٤٧-١٤٨ .

بعض العادات والمناسبات :

خضعت مختلف نواحي الحياة لقواعد جامدة ، جعلت حياة الشامي اليومية قليلة التغيير (١) . وليس الغرض هنا الخوض في التراث الشعبي لحياة السكان في نابلس ، فذلك موضوع آخر ، ولكن سيكتفى الاشارة باختصار الى النقاط التالية ، اعتمادا على ما جاء في السجلات والمصادر الاخرى : البناء ، اللباس ، المناسبات الدينية والوطنية ، ظهور عادات جديدة ، الحالة الصحية .

تأثر البناء في نابلس في القرن الماضي بالعوامل الطبيعية والاقتصادية والعسكرية والدينية فقد ساعدت الطبيعة على ان تكون مادة البناء من الحجارة ، لا سيما ان منطقة نابلس غنية بالاحجار . وصف الشيخ عبد الغني النابلسي في زيارته لنابلس سنة (١١٠١/ ١٦٨٩) البناء في نابلس فقال : " وبيوت نابلس كلها مبنية بالاحجار المنحوتة والجص واسقفها القبو المعقود وليس السقف من الخشب هناك بمعهود" (٢) . واثر الوضع الاقتصادي على حجم البيت ، فاختلف بيت الغني عن بيت الفقير . ووجدت بنابلس ابنية شيدت لاغراض عسكرية او امنية كقلعة صانور (٣) . وادت الفلسفة الاسلامية في البناء الى عدم كشف البيوت بعضها بعضا .

راعى المسكن القديم في القرن الماضي حاجات السكان ، وكثرة عدد افراد الاسرة . ووجد في نابلس نوعان من المساكن : مساكن ذات باحات سماوية او مسقوفة ، وسقوفها معقودة او مسطحة وتكون الباحة بالوسط ، واصطفت الغرف على جوانبها . وهناك بيوت بنيت على شكل صفوف ليس لها باحات (٤) . وكانت الدور في نابلس مكونة من طابق او من طابقين ، واشتمل البيت على غرفتين او اكثر وايوان ذكرت السجلات انه كان يستخدم لاغراض الطبخ ، كما اشتمل البيت على ساحة سماوية او مسقوفه (٥) ، ووجد قبو من الداخل يوصل الى الطابق العلوى (٦) . ووصفت املي

---

(١) غرايبه : سورية ، ص ١٣٥ .

(٢) النابلسي : الحضرة الانسية .

(٣) عارف : ص ٦٧ .

(٤) نفس المصدر : ص ٨٠ ، سجل : ٣٤ ص ٣٢ .

(٥) سجل ٣٤ : ص ٣٢ .

(٦) سجل ٩ : ص ١٧٤ .

نيوتن البيت القروي في اواخر القرن الماضي واوائل القرن الحالي فقالت " اما البيت القروي فهو غرفة من المدر والسقف من المدر على روافد من جذوع الشجر ، وان كان كبيرا حمل الروافد على الجسر بين حائطين ، والارض من الطين . وقد ارتفع ثلثاها " دكّة " يقال لها " المصطبة " وخصص قسم من غرفة الفلاح لرب البيت وعياله ، وخصص القسم الباقي لحلاله من بقر وجمال او خيل وحمير ودجاج وحمام وعاش الجميع تحت سقف واحد . وبحاقة افريز الدّكة المذواد وهناك حائط قائم دون السقف ، فذلك صف من الكواير (الخوابي) ، كل كوّارة لنوع من المؤن ، وقد اقيمت على قاعدة ولها فم يسد بكمكة من خرق القماش اشبه بالكرة . ويوجد بحائط من المصطبة ثلمة هي الخزانة الحافظة للفرش والالحفة والوسائد ، وحجبت الخزانة ستارة ناصعة البياض مطرزة الحواشي . وهناك ثلم صفار لحفظ المواعين والاواني والادوات المنزلية . ووضع في زاوية البيت جرار الزيت وسائر السوائل ، وقلّ ان يخلو بيت من مطحنة ذات حجرين من حجار الرحى تدار باليد ، وقلما يكون غير الباب الواحد للبيت الواحد " (١) . وكانت ادوات الانارة هي السراج والشمعدان الذي يضيء بزيت الزيتون ، ولما عرف الكاز ، قوبل بنوع من الفتور اذ خشي الناس من ضرر نور الكاز على العيون (٢) .

شكلت الحجارة والشيد المستخلص من الحجارة الكلسية مع الطين مواد البناء الرئيسية . وقامت طريقة البناء على خلط الطين مع الكلس ، واستعماله كملاط بين حجارة الابنية لتثبيتها . وحفر للبيت اساس كي يقوم البناء على ارض صخرية (٣) . وبنيت الجدران من الخارج باحجار كلسية بيضاء منحوته ، اما من الداخل فوضعت حجارة صغيرة جمعها ملاط من الطين والكلس ، اذ كانت صفا من الحجارة غير المنحوته بينها وبين الجدار الخارجي مسافة ٦٠-٧٠ سم ، وملأ ما بينها حجارة صغيرة مع الملاط الكلسي الطيني .. ولّبس هذا الجدار من الداخل بطبقة من الطين المخلوط مع الكلس ايضا (٤) . وعمل للابواب الخارجية والداخلية ابواب خشبية او حديدية اما من دقّة واحدة او من دفتين . وروعي انتخاب الاحجار المنحوتة والمنسقة لتوضع على جانبي فتحة الباب . وكان للغرف نوافذ وشبابيك ، ولكل غرفة شباك او اثنين ، ويراعى ان تكون من جهة الشرق والغرب لدخول اشعة الشمس. اما السقف فهو اما على شكل عقود او سطوح مستوية ، وفوق هذه العقود والسطوح طبقة من الطين المخلوط بالكلس . واضاف سكان نابلس زيت الزيتون الى مواد البناء ،

---

(١) نيوتن : ص ٣٥ - ٣٦ .
(٢) غرايبه : ص ١٣٥ .
(٣) عارف : ص ٨٠ - ٨١ .
(٤) نفس المصدر : ص ٨٢ - ٨٣ .

مخلوطة مع الطين والكلس ، واستعمل ذلك في البيوت التي اسست لاغراض عسكرية كالقلاع . واضافة الزيت تجعل البناء اكثر متانة وصلابة (١) . وبلغ عدد بيوت سنجق نابلس في نهاية القرن الماضي ٢٠٣٣٥ بيتا (٢) .

يعتبر البناء احد الجوانب المدنية للحضارة ، وهو انتاج حضاري . وفي الحياة الاسلامية تتصل مدنية الامة بثقافتها ، ولذا فان قضية ستر الانسان داخل بيته ، وقضية حجب النساء عن اعين الغرباء امر هام في طراز البناء الاسلامي (٣) . وهذا ما اتضح في القرن الماضي ، فقد روعي في بناء البيوت في نابلس ان لا يكشف بعضها البعض الاخر ، ومنع فتح اى شباك يطلّ على ساحة مخصصة لجلوس النساء . وحددت المادة ١٢٠٢ من مجلة الاحكام العدلية الاماكن التي لا يجوز كشفها وهي : صحن الدار الذى هو مقر النساء ، والمطبخ ، والبئر (٤) . ووردت اشارات في السجلات الى ان المحكمة الشرعية كانت تقوم بالكشف على بعض البيوت للتأكد من ذلك . واذا وجد ان شباك احد البيوت يطل على الساحة المعدة لجلوس النساء ، سدّ الشباك ، ولم يشترط في سدّه بالطين والحجر ، بل اكتفي غلقه بأى آلة كانت (٥) . وجاء في مكان آخر من السجلات " ... اطلعنا على الطاقة التي فتحها اسعد البشتاوى بحوش مصبنته في الجهة القبلية ، وقد وجد تغبّ الكشف غير مطلّة على ساحة النسا " (٦) .

كان للباس قواعد عامة حتى اواخر القرن التاسع عشر ، اذ ان الزى لم يقرر وضع الفرد الاجتماعي فحسب ، بل حدد مذهبه وصناعته (٧) . وضع الرجل في بلاد

---

(١) النمر : ج ٢ ، ص ١٠٠ - ١٠٥ .
(٢) سالنامة بيروت : ص ٢١٨ - ٢٣٦ .
(٣) حوى (سعيد) ، الاسلام ، ج ٣ ، ص ١٠٢ .
(٤) سجل : ١١ ، ص ٦١ . مجلة الاحكام ، ص ٩٥ .
(٥) سجل ١٢ ، ص ١٢٢ ، سجل ١١ ، ص ٦١ .
(٦) سجل ١٢ : ص ١٢٢ .
(٧) غرايبه : سورية ، ص ١٣٩ .

الشام على رأسه طاقية ولف حولها قطعة من القماش الشاش او الموسلين لتشكيل عمامة . ولبس الرجل قميصا من الكتان او الحرير وسروالا او شخشورا ، وفوقها رداء دعي " القمباز" وهو رداء الى الكعبين سمي " الدلماية " او الضلماية" . وربط على الدلماية من الوسط حزام من الشال الفارسي او الكشميرى . ووضع الرجل الثرى فوق هذه الدلماية جبّة مبطنة بالفراء (١) . وانتشرت الطرابيش كغطاء للرأس في عهد السلطان محمود الثاني الذى كان اول من لبس الطربوش ، وتراءى التعمم تمشيا مع المدنية الاوروبية ، وتشجيعا للعساكر على النظام الجديد الذى اقتضاه مظهر العسكر (٢) . ولقي اجراء السلطان محمود هذا تذمرا واسعا في سوريا وفلسطين ، واتهم السلطات ، بالارتداد والخيانة ودعي بالسلطان الكافر لانه اتخذ الطربوش لباسا للرأس . (٣)

لبس عامة الفلاحين في جبل نابلس الدلماية ، ووضعوا على رؤوسهم الكوفية والعقال . (٤) وكان لباس المرأة ثوبا طويلا غطّى كل قوامها ، ووضعت فوق الثوب ثوبا آخر عرف ب " القفطان " . ولبست بعض النساء اثوابا عليها قصب ، ولكن كنج يوسف باشا والي الشام اعتبر هذا اللباس من المنكرات ، فأمر سنة ١٢٢٢ / ١٨٠٧ يمنع لباس الاثواب المقصّبة " ... وساير الانواع المقصب بطل استعماله كليا" (٥) .

اعتنت المرأة ببعض زينتها ، فوضعت الحنّاء على يديها وشعرها ، وخطّطت حواجبها ، وكحّلت عينيها (٦) ، ولبست بعض الحلي والمصاغ من حلق وخواتم وأساور (٧) . وقررت الدولة في احدى السنوات جمع الحلي والمصاغ المصنوع من الذهب من الناس ، وأصدر شيخ الاسلام فتوى بجواز ذلك ، ولم يبق للرجال

---

(١) غرايبة : سورية ، ص ١٣٩ .
(٢) القاسمي والعظم : ص ٣٧٧ .
(٣) حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجي ، ج ٢ ، ص ٣١٦ .
(٤) الدباغ : ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٦٤ ، النمر : ج ٢ ، ص ٣٠٨ .
(٥) سجل ٨ : ص ٢٨ ، الدمشقي : تاريخ حوادث المشرق ، ١٥ ، ص ١١٢ .
(٦) غرايبة : سورية ، ص ١٣٩ .
(٧) سجل ٦ ، ص ٣٧٢ .

من الحلي سوى " سيف وسكين وخنجر وبعض طبنجات وبارودة ودواية كاتب " (١) . وابقت للنساء "البفتات والزنّار والكردان" (٢) . واضاف مرسوم الدولة قائلا : " وماعدا هذه الاشيا انكان رجال او نسا لا تبقوا عندهم شي ومهما وجد من اواني وحلي وفضة وذهب ما عدا الاشيا التي نكرنا على موجب الامر الهمايوني بتجريرهم بدفتر شرعي ويتوجه لهم عمدة مخصوص " (٣) . وطبق هذا الاجراء على رجال ونساء المسلمين والنصارى (٤) وربما قامت الدولة بهذا الاجراء لحاجتها الى المال لشراء ما يلزم من السلاح من الدول الاوروبية ، ومن ناحية ثانية فقد اصدر شيخ الاسلام فتوى بجواز جمع الحلي والمصاغ والاواني المصنوعة من الذهب والفضة .

استخدم الناس آنية من الفخار والنحاس ، واستعملوا اوعية الفخار لحفظ الزيت وغيره ، وجعلت اواني النحاس لاغراض الطبخ (٥) ، وعرفوا الملاعق من الخشب والنحاس ، ووجد لدى بعض الاثرياء بعض آنية من الفضة والذهب (٦) .

احتفل الناس في القرن الماضي بنوعين من المناسبات : اولاها المناسبات الدينية ، مثل عيد المولد النبوي الشريف ، حيث كانت اسواق مدينة نابلس تزدان ويسمع الناس في المساجد قصة المولد . كما احتفل الناس بعيد الفطر ، وجرت العادة ان تطلق المدافع بشرى بقدوم العيد ، وتضاء المساجد لاداء صلاة العيد (٧) . وتحدثت احد الوثائق عن هذه المناسبة فقالت : " ... ولاجل اقامة صلاة العيد يقتضي اطلاق بنادق كثيرة جملة واحدة اشعارا بدخول وقت صلاة العيد المبارك (٨) . والنوع الثاني من المناسبات هي احتفالات بولادة مولود للسلطان العثماني او احتفالات

---

(١) سجل ٨ : ص ٢٦٠ .
(٢) سجل ٨ : ص ٢٦٠ .
(٣) نفس السجل : ص ٢٦٠ .
(٤) الدمشقي : تاريخ حوادث ، المشرق ، ١٥ ، ص ١١٢ .
(٥) نيوتن : ص ٣٦ .
(٦) النمر : ج ٢ ، ص ٣٠٢ .
(٧) سجل ٢٤ : ص ١٥٨ .
(٨) سجل ٢١ : ص ١٢٣ .

بمناسبة جلوس السلطان على سدّة الحكم ، فحينما ولد احمد بن السلطان محمود الثاني ، اصدر والي الشام الى متسلم نابلس" يعمل شنلك (١) عظيم على سبعة ايام متواليات" (٢) . وكذلك طلب الى الناس اقامة الافراح بمناسبة ولادة السلطان عبد المجيد بن السلطان محمود سنة ١٢٢٨/ ١٨١٣ (٣) . وكان عندما يتولى السلطان الحكم ، يرسل الولاة مراسيما الى السناجق والاقضية لاعلامهم بذلك ، ويطلبوا اليهم اعلان ذلك على الملأ " وان تكون الخطبة باسم السلطان الجديد على المنابر في الجمع والاعياد وطلب الدعا الى السلطان وعمل الزينة لمدة ثلاثة ايام واطلاق المدافع ثلاث مرات في كل يوم لمدة ثلاثة ايام" (٤) . وكان اذا انتصرت الدولة في موقعة من المواقع العسكرية في جهة من الجهات ، ترسل اشعارا بذلك الى الولايات" ليحصل الفرح والسرور الى كافة المسلمين بهذا الفتح المبين" (٥) .

تمسك الناس بعاداتهم التي توارثوها من الماضي الا ان رياح التغيير هبّت على عادات الناس في القرن التاسع عشر . واتضح ان كثيرا من العادات الجديدة لم تكن حسنة ، فقد كثر انتشار القيل والقال ، وقذف الناس بعضهم بعضا واقبلوا على العاب الشطرنج والضّامة والمنقلة بشكل كبير ، فأدى ذلك الى قلة محافظة الناس على الصلاة (٦) . وبدأت عادة حلق اللحى تنتشر بين الناس" واغلب اهل هذه الصنعة من النصارى فهم الذين ابدعوا هذه الصنعة وتبعهم غيرهم" (٧) . ونظرا لضعف الوازع الديني في نفوس الناس ، واقبالهم على حلق اللحى ، اصدر والي الشام مرسوما الى سكان نابلس ، شرح لهم اهمية الصلاة ، واهمية اقامتها وان تاركها ملعون ، واعتبر المرسوم حلق اللحى من اعظم المعاصي لانها " تذهب نور الوجه وتنزع البركة من المال والرزق " (٨) .

---

(١) شنلك : سرور ، فرح ، تزيين ، الانسي : ص ٣٢١ .
(٢) سجل ٨ ، ص ٤٠٨ .
(٣) سجل ٧ : ص ٣٧٩ .
(٤) سجل ٩ : ص ١٣٢ .
(٥) سجل ٧ : ص ٣٩٢ .
(٦) سجل ٦ : ص ٣٢٢ .
(٧) القاسمي (احمد محمد سعيد) ، قاموس الصناعات الشامية ، ص ١٠٣ .
(٨) سجل ٦ : ص ٣٢٢ .

وأضاف المرسوم " صدرت اوامرنا الى الجميع باطلاق اللحا واصدرنا لكم مرسومنا هذا لكي تشهروا ذلك في نواحيكم داخلا وخارجا باقامة الصلوات الخمس باوقاتها بالاذان والاقامة والجمع والجماعة والذي يصير منه اهمال او يترك فرضا من فروض الصلاة تزجروه وتضربوه وكذلك تنبهوا على الحلاقين وعلى كافة الايالة باطلاق اللحا ولا احد يزين لحيته بوجه من الوجوه ولا احد يرتكب هذه المعصية قطعا مطلقا كما هي عادة الاسلام والمسلمين ولا يبد من احد منكم ادنى تهاون ولا قصور" (١) وانتهى المرسوم الى القول بانه قد تم دفع المنكرات والملاهي في ولاية الشام، وطلب الى متسلم نابلس رفع هذه المنكرات" من الفجور والمغاني والرّقاصين والالعاب الاخرى" (٢) .

واخذت تظهر عادة سيئة اخرى في لواء نابلس وهي النوح على الميت بصوت عال ، ولتوضيح هذه العادة البدعة ندع الوثيقة التالية تتحدث عنها " ... حضر لنا جماعات من الرجال المسلمين واخبرونا ان بعض النسا اذا مات لهن قريب يجتمعن في بيت الميت ويحللن شعورهن ويسودن وجوههن ويلطمن الخدود والصدور ويخرجن بهذا الحال الى القبور ويمكثن على القبر مقدار ساعة او ساعتين على هذا الحال من الصياح ، واللطم ثم يذهبن الى بيت الميت وهن بتلك الحالة ويفعلن ذلك ثلاثة ايام من الصياح ..." (٣) . ولمّا كانت هذه الاعمال مخالفة للشريعة الاسلامية امر النائب الشرعي منع تلك الاعمال ، وارسل تنبيهاته الى اولياء النساء والائمة والمختارين " ومناداة المنادى بالاسواق والشوارع" (٤) بمنع هذه البدعة السيئة .

لم تكن الاحوال الصحية للسكان في القرن الماضي حسنة ، بل ان كثيرا من الامراض الخطيرة كانت اذا اصابت الناس فتكت بالكثيرين لعدم معرفة الناس وسائل الوقاية او وسائل العلاج . ففي سنة ١٢٠١ / ١٧٨٦ " امتد الطاعون في كثير من البلاد ومات كثير من الناس" (٥) . وانتشر مرض الجدرى سنة ١٢٢٥ / ١٨١٠ حتى لم يخل منه بلد ، ومات به اناس كثيرون (٦) . كما انتشر الطاعون سنة ١٢٢٨ / ١٨١٣ في بلاد الشام (٧) . واشارت السجلات الى وجود اطباء في مدينة نابلس في نهاية القرن الماضي ، ووصفت بعضهم بالاسطة اى المعلم الماهر (٨) . ووجد مستشفى واحد في مدينة نابلس (٩) اقيم في عهد متصرفها صادق باشا (١٠) .

---

(١) سجل ٦ : ص ٣٢٢ (٢) سجل ٦ : ص ٣٢٢ .
(٣) سجل ٣٥ : ص ٩٤ (٤) نفس السجل : ص ٩٤
(٥) الشهابي : لبنان في عهد ، ق ٣ ، ف ٨٥٠ .
(٦) الشهابي : الروض النضير في ولاية الامير بشير، ص ٩١٧ .
(٧) الدمشقي : تاريخ حوادث ، مشرق ، ١٥ ، ص ١١٢ .
(٨) سجل ٩ : ص ٢٤٧ (٩) سالنامة بيروت : ص ٢١٨ - ٢٣٦ .
(١٠) ملفات بالخارجية T 150 /115